عبد الرحمن البرقوقي

الفردوس

أو

سياحة في الآخرة

مطبعة الاستقامة

عبد الرحمن البرقوقي

الفردوس

أو

سياحة في الآخرة

مطبعة الاستقامة

أخطاء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	٣	التَّمثَال	التِّمثَال
٨	٨	رقيقاً	رَفيقاً
٣٦	٣	لِذِى النَّصفة	لَدَى النَّصفَة
٦٠	١	تُرَاحُ	تَرَاحُ

وهناك أخطاء أخرى نبهنا إليها فى آخر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وضم سبحانه نسمة العود والنسيم

أما بعد ؛ فهذه نظرات وفكر ؛ آمل أن تكون موفقة بعيدة الأثر ، وثمرات أوراق يانعات[1] ، أرجو أن تكون حبيبة إلى القلوب سائغات ، وشطحات[2] أشتات بين حق وما يشبه الباطل ، وجد وما يشاكل الهزل الهازل ، ومناقلات[3] أبكار ؛ وضعتها على ألسنة أعلام برزة

---

(١) أينع الثمر فهو يانع : أدرك ونضج

(٢) الشطحات : من مصطلحات المتصوفة ، وهى لديهم عبارة عن كلمات تصدر منهم فى حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق تعالى عليهم بحيث لايشعرون حينئذ بغير الحق ؛ وقد استعرناها منهم لمختلف وثبات الذهن وشتى خطرات القلب وفيوضات الخاطر وكل ماهو من الاستطراد بسبيل

(٣) المناقلات : هى أن يتناقل القوم الكلام بينهم ويتنازعوه ، تقول : ناقلت فلاناً الحديث إذا حدثته وحدثك ، وهى من قبيل المناظرة ؛ ومثلها المثاقفة ، وهى من قولهم ثاقفه مثاقفة فثقفه ـ كنصره ـ غالبه فغلبه فى الحذق

أخيار ، ومُثاقفات عذراوات عزوتها إلى أديب أُولِعَ بالأدب العربيّ القديم ، وآثارِه العَبْقَرِيّاتِ الأوابِدِ(١) من نَثِير ونظِيم .

* * *

حوالَ سنة ١٩٠٦ م دعانى إليه ، المأسوف عليه ، إمامُ اللغة و « البيان » فى عصره ، الشيخ إبراهيم اليازجى - وكان قد « نَظَمنى وإياه وُدٌّ قديم ، ولفَّ هَوَاىَ بِهَوَاه عهد كريم » - حتى إذا أجبته ناولنى دَفْترًا مخطوطا ، وقال : هذه رسالة الغُفْرَان للمعرى ، كلفنى الورّاق الناشر المشهور ، أمين هنديه ، أن أُصَحِّحَها ، أضْبُطَها بالشكل الكامل ، كى يُخْرِجَها بالطبع

والفطانة وإدراك الشيء ، وأصله من ثاقفه : لاعبه بالسيف ونحوه ؛ وعذراوات : جمع عذراء ، والمراد أنه لم يسبق إليها

(١) الأوابد : جمع آبدة ؛ والمراد : الباقية على الأبد لروعتها ؛ ويقال للشوارد من القوافى : أوابد من ذا - قافية شرود : سائرة فى البلاد تشرد كما يشرد البعير . قال الفرزدق :

لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكم وأوابدى بتنحل الأشعار

على هذا الوضع : فنصحتُ له بأن تقوم أنت بهذه المُهِمّة التى أراها[1] شاقّة مضنية ، ولكنك - إن شاء الله - بمثلها زعيم ...[2]

فقرأت الرسالة ، ثم توفّرتُ على ضبطها بعد أن اقترحت على الناشر شرحَها : فأبَى إلّا طبعَها مجرّدةً من الشرح ، فكان : وكان أن سُحِرتُ بهذه رسالةِ الغفران ، وكان من أثَر هذا السحر أن فكّرتُ فى عملٍ أنْحُو فيه هذا المَنْحَى ، من جهة المَظْهَرِ والمَبْنَى ، لا من جهة المَخْبَرِ والمعنى ، وأحتذى فيه على هذا الحذْوِ البديع ، وإن لم يُدركِ الظّالعُ شأْوَ الضليع[3] .

فاستخرت الله تعالى فَخارَ لى ؛ وصَمّمت ، على ارتسام ما رسمت ، وأخَذْتُ فى هذا العمل على النحو الذى ترى ... وأسميته « الفردوس أو سياحة فى الآخرة » ، وكتبت آنئذ طائفةً من الكلام تنتهى بوصول الأديب إلى قصر شيخنا الأستاذ الإمام « محمد عبده » فى الجنة ؛ ثم صَرَفتْنى عنه تصاريف الأيام ، وخَطَر الدَهْرُ

---

(١) أراها : أظنها (٢) زعيم : كفيل

(٣) الظالع هنا : الضعيف ، وأصله من الظلع ، وهو العرج ؛ والضليع : القوى

مِنْ خَطَرانِه[1] ، وتصرَّمت السِنُون ، وتجَرَّمت الدهور[2] ؛ حتى إذا كانت سنة ١٩٢٧ زارنى أحد أصدقائى من كُتَّاب إحدى المجلّات الأسبوعية ، وسألنى شيئاً يَنْشُره لى ، فعرضت عليه أشياء من بينها هذه القطعة من «الفردوس» فأخذ فى إذاعتها ؛ فحَفَزَنى ذلك إلى إتمامها ، فخطوْتُ فيها خُطواتٍ رَغِيبَات[3] ..

وأخيرًا ؛ وفى هذه الأيام ، اقترح علىّ أخٌ لى كريم أن أبادر بطبع هذا «الفردوس» مُنَجَّمًا على أسفار ، على الرغم من غلاء الأسعار ؛ فامتثلتُ وأنا أقدِّم رِجْلا وأُؤخر أخرى ، لا لشىء سِوى أننى أخشى ألّا يَروقَ مثلُ هذا الأسلوبِ طائفةَ من مُثَقَّفى هذا الجيل ، لِمَا يَغلب على بعض مواضعه من الغريب والصناعة البيانية ؛ من تشبيه واستعارة وسجع وازدواج وتضمين واقتباس ووصف مُسْهَب ؛ وما إلى ذلك مما قد يَنْبُو

---

(١) هو كقولهم ضرب الدهر من ضرباته : أى مرّ من مروره وذهب جانب منه

(٢) تصرمت وتجرمت : انقضت

(٣) رغيبات : واسعات

به ذَوْقُ فِئام ، من أدباء هذه الأيام[1] ... بيْدَ أنى أظنُّ أن هناك على هذا جَمْهَرَةً مُتَوافِرَةً من عُشّاق البيان ، ولغةِ الضاد والفُرْقان ، قد يقعُ منهم مثْلُ هذا العملِ مَوْقِعًا تَرَاحُ له نُفُوسُهم[2] ، وتَصْبُو إليه أفئدتهم ، لا من جهة عرضه هذا العَرْضَ المُسْتَطْرَف ـ وأستغفرالله ـ فَحَسْب ، ولكن لهذا ، ولِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ فِكَر وآراءٍ هى نِتاجُ التَجارِيب ، وثِمارُ الإطّلاع والبحث والتَنقيب ؛ يُظَاهِرُ ذلك حَقٌّ صُرَاح ، وصِدقٌ صادقٌ مَحْضٌ بَرَاح[3] ... على أن ما قد يُلاحَظُ من ضروب الصناعة إنما يَكْثُر فى صدر «الفردوس» لا فى سائره ؛ وفى أوائل عَرْضه لا فى أوساطه وأواخره ؛ إذْ وُشِّىَ هذا القِسْمُ أيامَ الشَباب ، وجُنونِ الغَرَام بالأدَبِ المُزَوَّرِ اللُباب[4] . أمَّا مايفْرُطُ من القَلَم أحيانا مما هو بالهزل والمجون أشْبَهُ ؛ فإنما الهَدَفُ فيه ، بعد الإحْماضِ والتفكيه[5] ؛ هو

---

(١) فئام : جماعات ، ولا واحد له من لفظه

(٢) راح له يراح : سرّ به ووجد له خفة وأريحية

(٣) المحض : الخالص من كل شوب ؛ والبراح : البين الذى لاخفاء به ولاجمجمة

(٤) المزور : المحسن المزخرف ؛ واللباب : الخالص

(٥) الإحماض : التفكيه ، يقال أحمض القوم إحماضاً : إذا أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث ، كما يقال : فكه وتفكه ، من أحمضت الإبل : إذا ملت من رعى الخلة ـ وهو الحلو من النبات ـ اشتهت الحمض فتحولت اليه .

الاستعانةُ على ما وراء ذلك؛ من دقيق الأغراض وخفيّ المسالك؛ ورحم الله من قال: إنى لأستجمُّ نفسى بالشىء من اللهو والباطل ليكون ذلك أعونَ لها على الحق ... أو كما قال.

« وأمّا بعد » فإن هذا « الفِردوس » إنما هو — كما ترى — وُصْلةٌ إلى عَرْض أنماطٍ مختلفة من الكلام، وألوانٍ شتى من القول، فى كل ماعسى أن يُفكّرَ فيه المفكرون، من ضروب العلم والعِرْفان؛ وأفانينِ الثّقافة والبيان؛ وسيطول هذا « الفردوس » ويَتّسِع؛ حتى لقد يستوعب عِدّةَ أسفار؛ وحتى ليصح أن يُعَدّ هذا السِفْرُ غَيْضًا مِنْ فَيْض بالإضافة إلى سائر الكتاب.

والله سبحانه هو الموفق إلى إتمام هذا العمل، وأنْ يَجْعَلَ القبولَ حَلِيفَه؛ ورضا الناطقين بالضاد عنه أليفَه؛ إنه سميع الدعاء؛ وهو حسبى ونعم الوكيل.

عبد الرحمن البرقوقى

ربيع الآخر سنة ١٣٥٩ﻫ
مايو سنة ١٩٤٠ م

حَدَّثَ أديبٌ ثَبَتٌ* ثِقَةٌ قال :

إنِّى لَفِى بَيْتى ذاتَ لَيلةٍ من الليالى وقَدْ تَزَوَّيْتُ فى زاويةٍ منَ السَّرير [1] ، وبِالقُربِ مِنِّى مِصباحى الإضْحِيَان المُنير [2] ، ثُمَّ أخَذْتُ أُنَزِّه النَّفْس ، وأَجْلو صَدَأَ الحِسّ ، فى رَوضةٍ مِنْ رِياضِ الكُتُبِ والأَسفار ، ونُزْهَةٍ من نُزَهِ الأدَبِ والآثار ، أَجْتَلِى أنْوَارَهَا [3] ، وأَجْتَنِى مِنْ كُثُبِ أَثْمَارَهَا [4] ، وأَتفَيَّأُ ظِلَّهَا الوارفَ الظَّلِيل [5] ، وأَنْسِمُ

---

* ثبت بفتح الباء : حجة

(١) تزوّى : صار فى زاوية ، وزاوية البيت وأشباهه : ركنه ، وفيه معنى الجمع والقبض ، وفى الحديث : إن الله تعالى زوى لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها ، زوى لى الأرض : جمعها لى

(٢) الإضحيان : المضىء

(٣) أنوارها : جمع نور - بفتح النون - وهو الزهر ، واجتلاها : نظر إليها مجلوّة كالعروس

(٤) جنى الثمرة واجتناها : تناولها من شجرتها ؛ ومن كثب : من قرب وتمكن .

(٥) تفيأ : تظلل ؛ وظل وارف : واسع ممتد ؛ وظل ظليل : دائم الظل ، وقد يكون على المبالغة كقولهم : شعر شاعر ؛ وفى القرآن الكريم :

رَوْحَهَا الرطبَ الندىَّ العَليل [١] ، ويَرتَعُ قلْبى مِنْ جَنبَاتِها فى مَرْتَعٍ خَصِيب ، ويَكْتَسِى لُبِّى مِنْ أَوْرَاقِها بِثَوْبٍ مِن الحكمة قَشيب [٢] ، وَأَنْفِى الْهَمَّ بِرَحِيقِ كَوْثَرِها عَنْ ساحةِ صدرى [٣] ، وأَكْرَعُ من جَداوِلها العِذَابِ النِّطافِ وهى بين سَحْرِى ونَحرى [٤] ، وأَسْتَشْفِى بِتِرْيَاقِهَا مِنْ عِلَل

وندخلهم ظلا ظليلا

(١) الروح - بفتح الراء - نسيم الريح ، ونسم الريح وتنسمها : تتبع نسيمها وتشممه . قال الراجز : -

دع المطايا تنسم الجنوبا إن لها لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا يشهد أن قد فارقت حبيبا
ما حملت إلا فتى كثيباً يسر مما اعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا إذا لآثرنا بهن النيبا
إن الغريب يسعد الغريبا

(٢) القشيب : الجديد

(٣) الرحيق : صفوة الخمر ، والكوثر : النهر ، وهو أيضاً نهر فى الجنة

(٤) كرع هنا : شرب ، والجداول - جمع جدول - : النهر الصغير ، والعذاب - جمع عذب - : الماء الطيب ، والنطاف ؛ جمع نطفة وهى هنا الماء الصافى ، والسحر - بفتح السين وسكون الحاء - الرئة ، وفى حديث عائشة « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونحرى » أى : مات وهو مستند إلى صدرها

هذا الناسِ وَأدوائِه [1] ، ومن بَلايا هذا العالَمِ المنكوس وأرزائه [2] .

عَالَمٌ أشْبَهُوا القُرُودَ ولٰكِنْ خالفوها فى خِفَّةِ الأرواح

* * *

يَحْسُنُ مَرأَى لِبَنِى آدَمٍ وكُلُّهُم فى الذوق لا يَعْذُبُ
مَافيهِمُ بَرٌّ وَلَا ناسكٌ إلّا إلَى نفْعٍ لَهُ يَجْذِبُ
أفْضَلُ مِن أفضلِهِم صَخْرَةٌ لا تَظلِمُ الناسَ وَلا تكذِب

* * *

عَوَى الذِّئْبُ فاسْتأنَسْتُ بالذِّئْبِ إذْ عَوَى
وصَوَّتَ إنْسَانٌ فَكِدْتُ أطِير

وما زلت فى هذه الروضة الذهنيه ، وهاتيك النزهةِ

---

(١) الترياق : بكسر التاء ، دواء يدفع السموم

(٢) النكس فى الأشياء : معنى يرجع إلى قلب الشىء ورده وجعل أعلاه أسفله ، ومقدمه مؤخره ، وقد يكون فيه معنى الدعاء عليه بالخيبة ، وفى الحديث : « تعس عبد الدينار وانتكس » أى انقلب على رأسه ، وهو دعاء عليه بالخيبة لأن من انتكس فى أمره فقد خاب وخسر ، وأرزائه : امصائبه : جمع رزء

الرُّوحية العُلْوِيَّه ، إلى أنْ شَمَّرَ الدُّجَى للرحيل الذيل ،
وكاد النهار يَصيح بجانب الليل [١]
وقد فَكَّت الظلماءُ بعضَ قيودها

وقد قام جيش الليل للفجر واصطفا

وكانَ البيتُ لا يَحتوى أحدًا غيرى ، فكان الصدرَ وكنتُ فى طَيّه السِّرَّ المُكَتَّم ، وكان الحامِلَ العُشَراءَ وكنتُ الجنينَ غَيْرَ التوْأم [٢] ، وكان الجَفْنَ وكنتُ فِيه السلاح [٣] ، وكان السحابَ المركومَ ، وكان مصباحِى البارقَ اللّماح [٤]

وإنى لكذلك إذْ طُرِقَ بابُ غُرْفَتِى طَرْقاً خفيفا ، ثُمّ قُرِعَ بَعْدَ هُنَيَّةٍ طَرْقاً عنيفا ، فانتبهت مما أنا فيه ، ومَشَى قَلْبِى فِى صَدْرِى حتى شاعَ الذُّعْر فى جميع نواحيه ، وقُلْتُ

---

(١) يصيح هنا : يظهر قال الفرزدق : ـ
والشيب ينهض فى السواد كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

(٢) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر ، قال ابن الأثير : قد اتسع فى هذا حتى قيل لكل حامل عشراء ، وأكثر مايطلق على الخيل والإبل والتوأم : المولود مع غيره فى بطن واحد

(٣) الجفن : غمد السيف

(٤) سحاب مركوم : تراكم بعضه فوق بعض

فى نَفْسى تُرَى مَنْ بالباب ، ومَنِ الطّارقُ الْمُنْتَاب [١] ، أَمَلَكٌ كَرِيم ، أم شيطانٌ رجيم ، وانْثَالتِ الهواجِسُ على قلبى انثيالا [٢] ، وتقاطرت الوساوسُ عَلَى صَدْرِى أَرْسَالا [٣] ، وإنى لَمُرتَطِمٌ فى هذه الغَمْره [٤] وَغَاشِيةِ هَاتِيكَ السَّكْرَه [٥] إذ تحرك الباب فى سكون ، وفُتِحَ فى رِفْقٍ ولين حتى لاتكادُ تُحِسُّ اختلاجَهُ الظنون [٦] ، ثُمّ اقتحم الغرفةَ شَبَحٌ نُورَانى ، مُفْرَغٌ فى قالَبٍ إنسانى ، يَسْطَعُ النُّورُ حوالَيه ، ويُرَفرِفُ رُوح الجلالِ والرَّوعَةِ عليه :

---

(١) انثاب الرجل القوم انتيابا : إذا قصدهم ونزل بهم

(٢) يقال انثال عليه القول أى تتابع وكثر فلم يدر بأيه يبدأ ، وانثال عليه الناس من كل وجه : اجتمعوا وانصبوا

(٣) فى الحديث : إن الناس دخلوا عليه بعد موته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسالا يصلون عليه أى : أفواجا وفرقا متقطعة بعضهم يتلو بعضا ، الواحد رسل ـ بفتح الراء والسين

(٤) الغمرة : الشدة

(٥) سكرة الموت والهم ونحوهما : غشيته

(٦) اختلاجه : حركته

فَتِّى رُوحُهُ رُوحٌ بَسِيطٌ كِيَانُهُ
وَمَسْكَنُ ذَاكَ الرُّوحِ نُورٌ مُجَسَّدُ
صَفَى وَنَفَى عنه القَذَى فكأَنَّهُ
إِذَا مَا اسْتَشَفَّتْهُ العيونُ مُصَعَّدُ (١)

* * *

تَنْفُذُ العَيْنُ فِيهِ حَتَّى تُرَاهَا
أَخْطَأَتْهُ مِنْ رِقَّةِ المُسْتَشَفِّ
كَهَوَاءٍ بِلَا هَبَاءٍ مَشُوبٍ
بِضِيَاءٍ أَرْقَّ بِذَاكَ وأَصْفِ

فلا تَسَلْ بعد ذلك عما دَهَانى ، فقد قَبَعْتُ كالقُنفُذ فى مكانى ، وبَرَانِي الرُّعْبُ حتى لَتَقْتَحِمُنِي العينُ ولا تكاد ترانى ، وتقلّصت من الفم الشفَتان ، وكادت تنقطع نياط الجَنَان (٢) ونال منى الخوف حتى أحالنى عَرَضا (٣) . بعد أن أوسعنى

---

(١) لعل ابن الرومى يعنى بالمصعد : المذاب ؛ ومنه قيل : شراب مصعد إذا عولج بالنار حتى يحول عما هو عليه

(٢) الجنان ـ بفتح الجيم ـ : القلب

(٣) العرض : ما قابل الجوهر

حَرَضا ، (١) وفَغَر الموتُ فاه (٢) ، وكادت تَطِيرُ مِنْ جِسْمِى الحياةْ ،
ولم يبق فىّ إلّا نَفَسٌ خافِت ، وعَيْنٌ إنسانُهَا باهِت (٣)

رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي مِثْلِ الْخِــلَالِ إذا
أَطَارتِ الريح عنــه الثوبَ لم يَــبِنِ

وجُمْلَةُ القَوْل أنّى اسْتَحَلْت إلى حال :

يَكَادُ وَجِيبُ قــلوبِ الرِّجَالِ
مِنْ خَوْفِ مَكْرُوهِها يُسْمَعُ (٤)

* * *

لقد خِفْتُ حتى خِلْتُ أنْ لَيس ناظِرٌ
إلى أَحَدٍ غَــيرى فِكِدتُ أَطِيرُ
ولَيسَ فَمٌ إلّا بِسِرّى مُحَدِّثٌ
ولَيس يَدٌ إلّا إلىّ تُشِــير

ثم لَمحتُ الخيالَ وَقَدْ أخذ يتَخَطّرُ فى الغرفة بين جَيْئَة

---

(١) حرضا : دنفا وسقما وفساد بدن

(٢) فغر : فتح

(٣) خافت : ضعيف ، وإنسان العين : ناظرها ، وباهت : حائر ينظر متعجبا

(٤) وجيب القلب : خفقانه واضطرابه

وَذُهُوبٍ وغُدُرٍ ورواح ؛ وبعد خُطُوات معدودات وقفت الخيال ، وانتصب أمامى انتصابَ التِّمثال ، واستقبلنى كما يستقبل المُصَلِّى الإمام ، أو بيتَ الله الحرام ، ثم حَدَقنى مُبَرِّقاً بِعَيْنَيْه ، وأَتْأَرَ إلىّ — ساهمَ الوجهِ — ناظِرَيْهِ [1] ، ولَحَظْتُهُ وكأنه أشفقَ علىّ وخاف إنْ هو مضى فى صمته هذا أن أفيظ [2] ، وألفِظَ النفَسَ الأخير ، فأخذ يُلِيحُ بيديه إلاحةً يريد أن يُفْرِخَ رَوْعى [3] ، ويُميتَ خِيفَتِى ؛ ثم رأيته يَتَرَمْرَمُ [4] وأذِنْتُ من ناحيته صوتاً خفيتاً رقيقاً كأنه خَفْقُ النسيم فى السحَر [5] : لاعليك ياأخى لاعليك ، وليس

---

(١) حدقه : نظر إليه ، وبرق بعينيه تبريقا : إذا لألأ بهما من شدة النظر ، وأتأر إليه النظر : أحده ، وساهم الوجه : متغيره

(٢) أفيظ : أموت

(٣) يليح : يشير ، وأفرخ روعه : سكن جأشه ويخرج عنه فزعه كما يخرج الفرخ عن البيضة

(٤) ترمرم : حرك فاه للكلام

(٥) أذن أذنا : استمع ، قال قعنب بن أم صاحب :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا
منى وما سمعوا من صالح دفنوا

إلا الخير صِرْفاً ساقه الله إليك ، ولْيَهْنِئْكَ ما أنت قادم عليه [١] ... فأنا يا أخي نبي الله الخضر ... وقد أُمرتُ أن أستصحبك وأصعَدَ بك اليوم إلى المحل الأرفع والملكوتِ الأعلى — إلى حيث لا عَيْنٌ رَأتْ ولا اذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر على قلب بشر .. فَقُمْ يا أخي ، قم ولا تَنِ وخَلِّ الْهُوَيْنَا [٢] للضعيف ، واتْبَعْنى حَيْثُمَا سرت ، ولَستُ أطلب إليك إلا أن تلْزَمَ الصَّمْت ، ولا تسألني عن شيء حَتّى أُحْدِثَ لك مِنْهُ ذِكْرا ...

* * *

وماكاد نبيُّ الله الخضرُ يُتِمّ هذه الكلمات حتى قَرَّت العين ، وانكشفَ الرَّيْن ، وذهب الأَيْن ، وكأنما أُنْشِطتُ

صم اذا سمعوا خيراً ذكرت به
وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

(١) العرب تقول ليهنئك الفارس - بسكون الهمزة - وليهنيك الفارس - بياء ساكنة - ولايجوز ليهنك ، والمراد الدعاء له بأن يكون ماهو قادم عليه خيراً مستساغاً لا تعب فيه ولا مشقة

(٢) المراد بالهوينا هنا : الدعة والركون إلى الأهون من الأمور

من عِقال [١] . فلا وربك : ماالبُرْءُ بعد السُّقْم ، والخِصبُ بعد الجَدْب ، والغِنى بعد الفقر ، وما طاعة المحبوب ، وفَرَجُ المكروب : والوِصال الدائم ، والشباب الناعم ، بأحْلَى وأروحَ من هذه المُنْهَاهْ ، التى انتهت بها هذه المأساه [٢]

ما لِتُ فِي غَمَرَاتِ الموت مُطَّرَحًا

يَضِيقُ عنى وَسِيعُ الرّأيِ من حِيَلِى

فلم تَزَلْ دائباً تسعَى بلُطفِكَ لى

حتى اختَلَسْتَ حَيَاتى مِنْ يَدَىْ أَجَلى

وبعد ذلك أحْسَسْتُ أنا الآخر كأنى استحلْتُ إلى جسمٍ نُورَانِيٍّ شَفَّافٍ ، وأنّ مادةَ جُثمانى آضت إلى معنى رُوحانى ، وما هو إلا كَلَا ولَا ، أو كَحَسْوِ الطائر الماءَ

---

(١) قرت عينه : طابت نفسه وظفر بما يسره فلا يطمح إلى أكثر منه ، والرين كالصدإ يغشى القلب ، والألين : النصب والتعب ؛ ويقال للآخذ بسرعة فى أى عمل كان وللمريض اذا مرض وللمغشى عليه اذا أفاق كأنما أنشط من عقال أى حل ؛ نشط الحبل : ربطه ، وأنشطه حله

(٢) المنهاة : النهاية

وقد خافَ المَلَا [١] ، حتى زُوِيَتْ لنا الأرضُ [٢] ورأيْتُنى ونبيَّ الله فى صحراءَ دَوِيّةٍ بَرَاحٍ قَذَفٍ خلاء [٣] ، مُطَوَّقَةٍ أطرافُها بآماق السماء ، واسِعَةِ الجوانبِ ؛ مجهولة المذاهب ؛ تَغتَالُ الْخُطَى [٤] ؛ ويَحارُ فيها القَطَا ؛ [٥]

تَجْرِى الرِّياحُ بها حَسْرَى مُوَلَّهَةً

حَيْرَى تَلُوذُ بأطرافِ الجلاميدِ

فى فُسحة الظُّنون ؛ بَيْدَ أنه تَكْبُو دونَ غاياتها الخواطر

---

(١) حسا الطائر الماء وتحسى واحتسى : تناوله بمنقاره ، والملا : جماعة القوم

(٢) زويت : طويت

(٣) دوية : بعيدة الأطراف مستوية واسعة، قال العجاج :

دوية لهولها دوىّ للريح فى أقرابها هوىّ

وبراح : واسعة ظاهرة لا نبات فيها ولا عمران ، وقذف : بعيدة تقاذف بمن يسلكها

(٤) تغتال الخطى : يريد لا يستبين فيها المشى من بعدها وسعتها

(٥) القطا : طائر معروف ويقال فى المثل إنه لأدل من قطاة لأنها ترد الماء ليلا فى الفلاة البعيدة وإذا كانت القطا على ذلك تحار فى هذه الفلاة فحسبك بها فلاة !

وتَخْسأ الأبصار[١] ، فى رَوعة الخلود ، وهل للخلود روعة أروعُ من ذا أو انبهار

فضاء يرد العين حَسْرَى ومَسرَّح
يَقُصُّ جَناحَ الفكر وهْوَ مُحلِّقُ

ومَفازةٌ هائلةٌ لا تَسمعُ فيها لِواطِئٍ هَمْسا ، ولا لنابحٍ جَرْسا[٢] ، وجَوٌّ ساجٍ سَجْسَج[٣] ، وسَحَرٌ طَلْقٌ رَوْحٌ أبلج[٤]

نَسِيمُهُ كالرَّاحِ لو يُحْتَوَى
والرُّوحِ لو يُعْقَدُ مُنْحَلُّهُ

* * *

مِنْ نَسيمٍ كأَنَّ مَسْرَاهُ فى الأرْ
وَاحِ مَسْرَى الأرواح فى الأجساد

وسماء زرقاءُ صافيه ؛ ونجومٌ كأنها فى لُجَّةِ هذا البحر

---

(١) تخسأ : تكل تعبا

(٢) الجرس : الصوت

(٣) ساج : ساكن ، وسجسج : ليس به حر مؤذ ولا برد شديد

(٤) طلق : مشرق لا حر فيه ولا برد ، وروح : طيب ، وأبلج : مشرق مضىء

دراريُّ طافيه [١] ، أو أزاهِرُ طَلَّها النَّدَى فهى تَرِفُّ رفيفا [٢] ، أو قلوبٌ لذَعَها الحُبُّ فهى لاتنى خُفوقاً ووجيفا ، أو هىَ مسامِيرُ أبوابِ الجنة تَبِصُّ وتلتمع [٣] ، أو هى عيونُ الأبَدِيّة ترنُو إلينا رَنَواتٍ تُهيبُ بنا أنْ نَستَحِىَ ونرْتدع [٤] ، أو هى ثقوب تخترق طِباقَ السمواتِ العُلَى ، فتُشِعُّ منها أنوارُ الإله جلَّ وعلا ، والبَدرُ مُنْتَصِبٌ بين هاتيك الكواكب ، كأنه مَلِكٌ بين أجناده والمواكب ، وكوكب الزُّهَرَةُ تألق فى رَوعَةِ لُمْعَتِه ؛ فلولا التُّقَى لقلت جلَّت قدرته ، والجوزاء كفأرة تسبح ، أو غادة تَرقُصُ فى مَسْرح ، والحوت يَسْبَح فى السماء ، كما يسبح بِحذْقٍ فى المـاء

وبناتُ نَعْشٍ يَشْتَدِدْنَ كأنها
بَقراتُ رَمْلٍ خَلْفَهُنَّ جآذِرُ

* * *

---

(١) الدرارى : جمع الدرة ، اللؤلؤة العظيمة ، والكواكب تسمى الدرارى ، وهذا البحر : يريد السماء

(٢) رف الزهر والنبات : إذا اهتز وتلألأ وأشرق ماؤه

(٣) بص الشىء : برق وتلألأ ولمع

(٤) الرنو إدامة النظر مع سكون الطرف ، وأهاب به دعاه ، وأصله

ورَنا إلىّ الفرقَدَانِ كما رَنَتْ

زرقاءُ تَنْظُرُ من نِقابٍ أَسْود

✡ ✡ ✡

ولاحَتْ لساريها الثُّريّا كأنها

على الجانب الغَرْبيّ قُرطٌ مُسَلْسَلُ

✡ ✡ ✡

وسُهَيلٌ كوَجْنةِ الحِبِّ فى اللّو

نِ وقلبِ المُحِبِّ فى الخفقان

مُسْتبِدًّا كأنه الفارسُ المعْـ

ـلَمُ يَبدو مُعارِضَ الفُرسان

يُسرِعُ اللّمح فى احمـــرار كما

تُسرع فى اللّمح مُقلةُ الغضبان(١)

فى الإبل يقال أهاب الراعى بالإبل : صاح بها لتقف أولترجع

(١) سهيل يضرب إلى الحمرة وهو دائم الخفقان فهو يقول وبدا سهيل وقد اجتمع فيه صفة الحبيب وهى حمرة الوجه وبريقه وصفة المحب وهى خفقان القلب ، وقوله مستبدا الخ مستبدا أى منفرداً فى أفق من السماء كأنه فارس قد أعلم نفسه فى الحرب بعلامة يعرف بها وقد خرج عن معارضة فرسان يحاربهم يعنى سائر نجوم السماء كأن سهيلا يعارضها فى

✡ ✡ ✡

وقد لاح فجرٌ يَغْمُر الجوَّ نورُهُ

كما انفجرت بالماء عين على الأرض

حتى إذا قُوِّضَتْ خيام الظلام ، وفرّت أسراب النجوم من حَدَقِ الأنام ، لمَحْتُ على قِيدِ خُطْوَةٍ[١] منا بُراقَيْن ، أبيضين يَقَقين[٢] ، خُيل إلىّ أنهما فى انتظارنا ، مُعَدّان لركوبنا ، وكذلك كانا فقد تَدَلَّفَ[٣] إليهما نَبىُّ الله الخِضْر فامْتَطى أحدَهما ثم أشار إلىّ أنْ أمْتَطِىَ الآخَر ، وما كِدتُ أمْتَطى بُرَاقِى حتى رأيت منه عِفْرِيَةً نِفْرِيَةً مَرِحًا أرِنًا صَلَتَان ، كأنه كما قيل

أفق طلوعه ، وقوله يسرع الخ يصف شدة خفقانه وتلألؤه . يقول : إن سهيلا يرجع اللحظ سريعا متواترا مع حمرة فيه كأنه فى سرعة رجع البصر محمرا مقلة إنسان غضبان

(١) يقال هو منى قيد رمح وقيدخطوة ـ بكسر القاف ـ أى قدر رمح وقدر خطوة

(٢) يقق: شديد البياض

(٣) تدلف : تمشى ودنا

شيطانٌ فى أشطان [١] ، يكاد مما يَزْدَهِيهُ صَلَفُهُ يطير [٢] ، فكأنما لَسعته الزنابير [٣] ؛ أو كأن التُّرْبَ الذى يلامسه حَسَكُ السَّعدان [٤] أو كأنما خالطت هامتَه الخَندريسُ فهو مُعَرْبِدٌ سكران [٥] ؛ أمّا البُراقُ فهو الطِّرْف نِعْمَ الطِّرْف [٦] وهو لعبقريته يكاد يستغرق الوصف ؛ وحسبُه أنه رَكُوبة الأنبياء لا يَعْرُجُ بهم غيرُه إلى السماء ؛ وأنت فإذا نظرت

---

(١) عفريت نفرية : شيطان خبيث ، ونفرية على الاتباع ، وأرناً : جاد النشاط ، وصلتان : شديد نشيط أو حديد الفؤاد ، وأشطان : جمع شطن: الحبل

(٢) الصلف : المراد الإعجاب بالنفس وشدة الاعتداد بها ، وازدهاه استخفه كزهاه قال عمر بن أبى ربيعة

ولما تنازعنا الحديث وأشرقت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا

وقال الأخطل :

ياقاتل الله وصل الغانيات إذا أيقن أنك ممن قدزها الكبر

(٣) جمع زنبور : الطائر المعروف الذى يلسع ويهجم على النحل

(٤) الحسك : الشوك ، والسعدان : نبت ذو شوك ينبت فى سهول الأرض وهو من أطيب مراعى الإبل مادام رطباً

(٥) الخندرس : الخمر القديمة

(٦) الطرف : الكريم الطرفين ـ الأب والأم ـ من الخيل ونحوها

مُنْعِمًا [١] إليه : خِلْتَ الثُّرَيَّا طالعةً بين عينيه ؛ وتَوَهَّمتَ الجوزاء فى رسغيه [٢] ؛ وحَسِبتَ الضياء قد هُرِيق [٣] عليه

فكأنما لَطَمَ الصباحُ جبينَه
فاقتص منه فخاض فى أحشائه

أمَّا عيناه فسوداوان ولكنَّ سوادَهما كُلَّهُ نور، يَرَيانِ الشىء البعيدَ فى حَلَكِ الديجور [٤]،

يُرَى طامِحَ العينين يَرْنُو كأنه
مُؤانِسُ ذُعْرٍ فهو بالأُذْنِ خائِلُ [٥]

وأما أذناه فمُوَلَّلتان مُرْهَفتان، كأنَّهما يَراعَتان مُحَرَّفتان [٦]، فكأنه مُصْغٍ لسماع الإذْنِ بالسُّرَى ؛ مِنْ سَائِسٍ لهما لا يُرَى ؛ وأما مَتْنُه فلَيِّن الأعطاف، وَطِىءُ الأكناف، فإذا أنت امتطيته أصبت لَيَاناً فى لَيان، فكأن ثَمَّةَ نَسَبا بين عِظَامه والخَيْزُرَان، وأما ذَنَبُه

---

(١) منعما مبالغاً فى النظر

(٢) الرسغ : الموضع بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل

(٣) هريق : أريق وصب

(٤) الحلك : شدة السواد، والديجور: الظلام (٥) خائل : مختال

(٦) ألل الشىء : حدد طرفه ، واليراعة واحدة اليراع : القصبة التى ينفخ فيها الراعى والقلم وهو المراد هنا

فذَيلُ العَروس ، وجَناحُ الطاووس ؛ وأما حافره فالفَيروزَج زُرقه ، وهو على ذلك كلّه كالهواء رِقّه .

طَرْفٌ تَبيّنُ للبصير وغيره فيه النَجابة جارِيا ومَقُودا

* * *

هُذِّب فى جنسه ونال المدى بنَفْسه فَهْو وحدَهُ جِنْسُ

وهْوَ إذا ما ناجاه فارسُه يَفْهَمُ عنه ما تَفْهَمُ الإنْسُ

* * *

مَلَكَ العيونَ فإن بَدَا أعْطَيْتَهُ

نَظَرَ المُحِبِّ إلى الحبيب المُقْبل

وبعد أن امتطينا البراقين طارَا بنا فى الجوّ طيَرانا لستُ أدرى ولا إخالنى ماذا عَسى أن يُقال فى وصفه، وهو معْنًى من المعانى ليس فى وُسع اللغة العبارةُ عن مثله ، وإلا فهل يكفى أن تقول : بَازٍ هَوَى فى إثْرِ صَيْدٍ مِنْ مَرْقَب (١) ، أوْ رَجْمٌ انْقَضَّ فى إثْرِ شَيْطان مِنْ كوكب (٢) أو كأنْ قد صارَ له من

---

(١) الباز : ضرب من الصقور ، والمرقب : الموضع المرتفع يعلوه الرقيب

(٢) الرجم : واحد الرجوم ، والمراد هنا مايظهر فى السماء كأنه نجوم

كلِّ جارحة جَنَاح، أو إذا جَرَى البرقُ خَلْفَه كَبَا البرقُ وأخطأه النجاح[١]، أو دَعْوَةُ المَظلوم . لا تكاد تَخرُج من فم الداعى حتى تَصعَدَ إلى الله ثم تَحِيقَ بالظلوم[٢]

تفتَّحُ أبوابُ السماءِ لِوَفْدِها
إذا قَرَعَ الأبوابَ منهنّ قارع

أو هو ما يغزوه ابن هانئٍ بقوله يصف الخيل ، وكأنه رأى البرق بظَهْر الغيب[٣]

وأجلُّ عِلم البرق فيها أنها مَرَّت بجانحتيه وهى ظنون

كلا ، وكيف وما هو إلا رَجْعُ الطَّرْف حتى رَأيتنى ونبىَّ الله الخضرَ فى عالم الأرواح ؛ واقفينَ بباب الفردوس ودار الأفراح . . . الله أكبر ، ماذا أرى وأنظر ؛ وفى يقظة

تتساقط ، وهو معلوم أن الشياطين كانت ترجم بالرجوم فى صدر الإسلام لئلا تسترق السمع ، وسيمر بك القول فى هذا الموضوع بتفصيل فى هذا الكتاب

(١) كبا لوجهه : انكب على وجهه

(٢) تحيق : تنزل ، والظلوم : الظالم

(٣) يغزوه : يقصده ويعنيه ، وابن هانئ : هو الشاعر الأندلسى الضخم قريع المتنبى

أنا أم فى منام ؛ وهاتيك حقائق أم هى رؤى وأحلام ؟ الحمد لله على سبوغ نعمته ، وضفوّ نيله وعطيته ، الحمد لله لقد أجزل لى فى العطاء ، ومنحنى مالم يُمنَحْهُ غيرُ الأنبياء ؛ وسواء أكان ذلك فى عالم الخيال أم فى عالم الحقائق ، وفى عالم اليقظة أم فى عالم الرؤى الصوادق : فقد أتيح لى دخول الجنة قبل المهات ، ورأيت كل مافيها حقا وهيهات ذلك لسواى هيهات

✡ ✡ ✡

حدّث الأديب الثقة قال :

والآن - وقد آن لى أن أقُصّ عليكَ سِياحتى فى جنات الفردوس ، وأن أصِفَها لك وأصِفَ كلَّ مارأيت فيها على حقّه - فهل تترقب منى أكثرَ مما كان من ذلك الأعرابىّ الذى طرأ من البادية على حاضرة قد فَهَقَتْ حَضَارة[1] ، واسْتَبْحَرَتْ رَفَاهِيةَ وعِمَارة ، وزَخَرَت نعيما وتَرَفا ، واكتظّت بَدائعَ وطُرَفا ، ثم حَضَر عُرْساً فيها لأحد السَّروات ، فرأى شيئا لم تقع العين على مثله فى الحواضر بَلْهَ البوادىَ البلاقعَ المُقْفِرَات[2] ثم أُريد على أن يصف ما رأى ، فوصف ولكنه أضحك

(١) فهق الإناء : امتلأ حتى صار يتصبب

(٢) بله : اسم فعل بمعنى دع واترك

وما عَدَا [1] ، وأين أنا على ذلك من الأعرابى الذى أذاب الفصاحَةَ وأذابَتْه ، وأين عُرسُه من الجِنانِ وما حوَتْه ، ؟ كلا ،

(١) أورد صاحب الأغانى وابن قتيبة فى عيون الأخبار قصة هـذا الأعرابى ، ولطرافتها نوردها هنا ، قال محمد بن خالد بن يزيد بن معاوية : وكان قد نزل بحلب على الهيثم بن يزيد التنوخى ـ قال : فبعث ـ أى الهيثم ـ إلى ضيف له من عذرة ـ هو ناهض بن ثومة بن نصيح وكان شاعرا بدويا فصيحا ، وكان بدويا جافيا كأنه من الوحش ، طيب الحديث يقدم البصرة فتؤخذ عنه اللغة ـ قال محمد بن خالد : فقال ـ الهيثم لهـذا الأعرابى ـ حدث أبا عبد الله مارأيت فى حاضرة المسلمين من أعاجيب الأعراس ؛ قال : نعم ، رأيت أمورا معجبة : منها أنى رأيت قرية عاصم ابن أبى بكر الهلالى ، فإذا أنا بدور متباينة ؛ وإذا أخصاص منظم بعضها إلى بعض ، وإذا بها ناس كثير مقبلون ومدبرون وعليهم ثياب حكوا بها ألوان الزهر ، فقلت لنفسى : هذا أحد العيدين الأضحى أو الفطر ثم رجع إلىّ ماعزب عنى من عقلى ، فقلت : خرجت من أهلى فى عقب صفر وقد مضى العيدان قبل ذلك ، فبينما أنا واقف ومتعجب أتانى رجل فأخذ بيدى فأدخلنى دارا قوراء ـ واسعة ـ وأدخلنى بيتا قد نجد ، فى وجهه فرش قد مهدت ، وعليها شاب تنال فروع شعره كتفيه ، والناس حوله سماطان ـ صفان ـ فقلت فى نفسى : هـذا الأمير الذى يحكى لنا جلوسه وجلوس الناس حوله ، فقلت وأنا ماثل بين يديه : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، فجذب رجل بيدى وقال : اجلس فإن هذا ليس بالأمير ، فقلت : ومن هو ؟ قال : عروس ، قلت : واثكل أماه !

لا أَيْنَ ، ولو أن ما فى الأرض مِن شَجَرة أقلام ، والبَحْرُ يَمُدُّه من بعْدِه سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مِدَادًا للكلام عن الجنة لَنَفِدَ البحرُ

رب عروس رأيت بالبادية أهون على أصحابه من هن أمه ، فلم ألبث إذ دخلت الرجال عليها هنات مدورات من خشب وقضبان ؛ أما ما خف فيحمل حملا ؛ وأما ماثقل فيدحرج ، فوضعت أمامنا ، وتحلق القوم حلقا حلقا ، ثم أتينا بخرق بيض فألقيت بين أيدينا ، فظننتها ثيابا وهممت عندها أن أسأل القوم خرقاً أقطع منها قميصا ، وذلك أنى رأيت نسجاً متلاحكا ـ متداخلا بعضه فى بعض تداخلا شديدا ـ لا أتبين له سدى ولا لحمة ، فلما بسط القوم أيديهم إذا هو يتمزق سريعا ، وإذا هو فيما زعموا صنف من الخبز لاأعرفه . ثم أتينا بطعام كثير من حلو وحامض وحار وبارد ، فأكثرت منه وأنا لاأعرف مافى عقبه من التخم والبشم ثم أتينا بشراب أحمر فى عساس ـ جمع عس وهو القدح الكبير ـ فلما نظرت إليه قلت : لا حاجة لى فيه ، أخاف أن يقتلنى . وكان فى جانبى رجل ناصح لى ـ أحسن الله جزاءه ـ كان ينصح لى من بين أهل المجلس ، فقال : يا أعرابى ، إنك قد أكثرت من الطعام ؛ وإن شربت الماء انتفخ بطنك ، فلما ذكر البطن تذكرت شيئا كان أوصانى به أبى والأشياخ من أهلى : قالوا : لاتزال حيا ما دام شديدا ـ يعنى البطن ـ فإذا اختلف فأوص ـ فلم أزل أتداوى به ولا أ لى من شربه ، فتداخلنى ـ نالك الخير ـ صلف لا أعرفه من نفسى ، وبكاء لا أعرف سببه ولا عهد لى بمثله ، واقتدار على أمر أظن معه أنى لو أردت نيل السقف لبلغته ولو شاءت الأسد لقتلته ، وجعلت ألتفت إلى الرجل الناصح لى

قبل أن يَنْفَدَ الكلام

يَفْنَى الكلامُ ولا يُحيط بوَصْفِها

أيُحيط ما يَفْنَى بما لا يَنْفَدُ

فتحدثنى نفسى بهتم أسنانه وهشم أنفه ، وأهم أحياناً بأن أقول له : يابن الزانيه : فبينما نحن كذلك إذ هجم علينا شياطين أربعة : أحدهم قد علق فى عنقه جعبة فارسية مشنجة الطرفين ـ التشنج التقبض ـ دقيقة الوسط قد شبحت بالخيوط شبحاً منكرا ـ شبحت : شدت ـ وقد ألبست قطعة فرو كأنهم يخافون عليها القر ، ثم بدر الثانى فأخرج من كمه هنة سوداء كفيشلة الحمار فوضع طرفها فى فيه فضرط فيها فاستتم بها أمرهم ثم حسب على جحرة فيها «يريد حرك أصابعه على ثقوب هذه الهنة ـ وهى المزمار ـ كما يصنع الحاسب حين يعدّ بأصابعه» فاستخرج منها صوتاً ملائماً مشاكلا بعضه بعضا كأنه علم الله ينطق ، ثم بدر الثالث عليه قميص وسخ وقد غرق شعره بالدهن معه مرآتان فجعل يمرى إحداهما على الأخرى مريا ثم بدر الرابع عليه قميص قصير وسراويل قصير وخفان أجذمان لا ساقين لهما ، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب ، ثم التبط بالأرض ، فقلت : معتوه ورب الكعبة : « هذا هو الراقص » ثم مابرح مكانه حتى كان أغبط القوم عندى ورأيت الناس يحذفونه بالدراهم حذفاً منكرا ، ثم أرسلت الينا النساء أن أمتعونا من لهوكم ، فبعثوا بهم اليهن وبقيت الأصوات تدور فى آذاننا . وكان معنا فى البيت شاب لا آبه له ، فعلت الأصوات له بالدعاء ، فخرج فجاء بخشبة عينها فى صدرها فيها خويطات

ويُؤدِّى كَأَن ، أن يكونَ ذلك فى الإمْكان ، وأن يؤاتِيَنى كما أَشْتَهى وَصْفُ الجِنان ، فأَجْلُوَ على أهل الدنيا مَعْنًى لَوْ هُوَ بَرَزَ لهم لَتَزَخْرَفَ له مابين خَوافِقِ السموات والأرض ، ولَاسْتَحال جمالًا غيرَ الجمالِ مابيْنَ طولهما والعَرْض ؛ ولانْجابت حُلْكَةُ هذه الخاسره ، وحَلَّ مَحَلَّها نُورٌ إلهِىٌّ أَبَدِىٌّ من نور الآخره ؛ كما يَنْجابُ الشَّرُّ بالخير ، والضَّلالُ بالْهُدَى ، والمَرَضُ بالعافيه ، والنِّقْمَةُ بالنِّعْمَةِ الباقيه ، نَعَمْ ، ولو أُتيح لى أن أَصِفَ لك الجنة وأنا فيها ، رَاتِع بين أهْليها ، لَأَتَيتُ لك بكلام عُلْوِىٍّ فِرْدَوْسِىٍّ مَلَائِكِىٍّ ككلام أهل الجنة إنْ

أربعة ، فاستخرج من جنبها عودا فوضعه على أذنه . ثم زم الخيوط الظاهرة ، فلما أحكمها وعرك آذانها حركها بمجسة فى يده ، فنطقت ورب الكعبة ! واذا هى أحسن قينة رأيتها قط ؛ وغنى عليها فاستخفنى فى مجلسى حتى قمت فجلست بين يديه . فقلت : بأبى أنت وأمى ! ما هذه الدابة ؟ فلست أعرفها للأعراب وماخلقت إلاحديثا ! فقال : ياأعرابى هذا البربط الذى سمعت به ، فقلت : بأبى أنت وأمى ! فما هذا الخيط الاسفل ؟ قال : زير ، قلت : فماالذى يليه ؟ قال : مثنى ، قلت : فالثالث ؟ قال : المثلث ، قلت : فالرابع ؟ قال : البمّ ، قلت : آمنت بالله أولا وبالبم ثانياً .

لم يكُنْ مُنْطَبِقاً كلَّ الانطباق فعَسَى أن يكون مقارِبا ؛ ولكنى وأَسَفاه أُحدِّثُكَ بعد خروجى من الجنة ، وتَمَرُّغِى فى أعْطافِ دنياكم هذه وهُوِيِّى إلى هذا الحضيضِ الأوهد . . . على أنّه إنْ لم يَكُنْ صَدَّاء ، فماء[1] ، وإن لم يكن خَمْر نَخَلّ ، وإن لم يُصِبْها وَابِلٌ فَطَلّ[2] ومن لم يجد ماءً تيمَّما . . .

✡ ✡ ✡

رضوان

رضوان ومَا أدراكَ مَنْ رضوان ثم ما أدراك من هو ؟ هو أحد الملائكة المقربين ، وحَسْبُه أنَّهُ سَيِّدُ خَزَنَةِ الْجَنَّةِ التى أُعِدّت المتقين . وهو نُورٌ فى نُور ؛ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يأْخُذُ بالأبْصار ، ولَوْ هُو صَاحَ فى جَانِبَيِ الديجور[3] ، لانمحت آية الليل ولم يبق إلا النهار ، وماذا عسى أن يكونَ القول فى مَلَك هو ابتسام فم الآخرة . . ، وإذا كان يوم الفصل

---

(١) صداء ركية « بئر » ليس عند العرب ماء أعذب من مائها وفى المثل ـ ماء ولا الصداء ـ يضرب فى الرجلين يكونان ذوى فضل غير أن لأحدهما فضلا على الآخر

(٢) الطل : المطر الضعيف ، والوابل : المطر الشديد

(٣) صاح : ظهر ، والديجور : الظلام

فهو فيه قطْبُ الرَحى ومَرْكَزُ الدائره . ولا غرو فمن ذاالذى يدخُل دارَ السلام إلا بإذنه ورضاه ، ومن ذا الذى لايجعل الازدلاَف إليه لذلك وَكْدَه وهِجّيرَاه [١] ؛ أما أنا فقد أراحنى نبى الله الخضر وكفانى مُؤنة بذل أى مجهود فى سبيل دخول الجنة ، إذ لم تكد عَين رِضْوَان تأخذ الخضر عليه السلام حتى فُتِح لنا بابُ الفِرْدَوْس ، وفى هذه اللحظة فَرَطَتْ منى بَادِرَةٌ كادت تَطِيحُ بى فى مَهْوَاةِ اليأس من دخولى الجنة [٢] إذ أدركتنى حركة الأدب — لها الله — وجَال فى صَدرى أنْ أنْظِمَ أبياتاً أمتدحُ بها رضوان وأزدلف بها إليه ، شِنْشِنَتِي فى الدنيا وشِنْشِنَةُ كلِّ أديب [٣] ، فاتَّسَقَ لى ذلكَ واستقام ، وفتح الله علىّ بقصيدٍ بارع مُوفٍ على

---

(١) الازدلاف : التقرب ، ووكده : قصده ، وهجيراه : دأبه

(٢) فرط منه قول : قاله من غير روية ، والمراد بالبادرة السقطة والزلة وهى فى الأصل مايبدر عند حدة الغضب ، وطاح به : ذهب به وسقط ، والمهواة : الحفرة والبئر وفى حديث عائشة ـ ووصفت أباها ـ وقالت : وامتاح فى المهواة . أرادت البئر العميقة ، أى : أنه تحمل مالم يتحمل غيره :

(٣) أزدلف : أتقرب ، والشنشنة : العادة

الغاية أطْرَيْتُ فيه رضْوان ولا إطراءَ النصارى المسيحَ بن مَرْيَم [١] ، ثم اقتربت من خازن الجنة لِأُنْشِدَه هذا القصيدَ وكأنّ نبيّ الله الخضرَ أحسّ ذلك منى ؛ فنظر إلىّ نظرة مُرَوِّعة اسْتُطِير لها قلبي وماثَ من الخوف كما يَنْمَاثُ المِلْحُ فى الماء ... فأمْسَكْتُ وسُقِطَ فى يَدَىّ [٢] ، واعتذرت إلى الخضر عن هذه الهفوة ونَشَدْتُه اللهَ : أن لا تُرْهِقَنِي مِنْ أمْرِى عُسْرًا ، فإن رَبَّةَ الشّعر هى التى أوحت إلىّ وأغرتنى بهذا الأمر إذ سَحَرَنى جَمَالُ رضْوَان وملك علىّ مشاعرى وأنسانى ماتشارطنا عليه ... ويالله ما أشأمَ الأدَبَ عَلَى مَنِ امْتُحِنَ به حتى فى الآخرة ! ... وما لِرِضْوَان الذى خَلَقَهُ الله مِن طِينَةِ الصِّدْقِ ، وفِى مَهْدِه دَرَجَ وفى آفاقِهِ يَطير وما لِلشعر الذى أحْسَنُه كما قيل أكْذَبه !

* * *

---

(١) الإطراء : مجاوزة الحد فى المدح

(٢) يقال للرجل النادم على ما فعل الحسر على ما فرط منه : قد سقط فى يده وأسقط

الأديب يدخل الجنة

ولما فُتح لنا بابُ الْفِرْدَوْسِ أَخَذَتْ عيناىَ شَجَرَةً شَجْرَاء [١] أَصْلُهَا ثابتٌ وفَرْعُهَا فى السَّماء [٢] ، ومِن سِنْخِ [٣] هذه الشجرةِ يَنْبُع عَينانِ ثَرَّتَانِ نَضَّاخَتَان [٤] ، يَنسابُ منهما نَهْرانِ يَجْرِيان ، وحَوالَ هذه الشجرةِ سِربٌ من الملائكة وقد اصطفُّوا صفًّا صفا ، فحيَّاهم نبى الله الخضر ، فحيُّوا بأحسنَ مِن تحيته ، ثم غَمَزَنى نبىُّ الله بعينيه وأشار إلىّ بأن أنغمس فى إحدى هاتين العينين ، فسألته جَلِيَّةَ الأمْر ، فقال : وهذه واحدة ... ألم أقل لك لا تسألنى عن شىء حتى أُحْدِثَ لك مِنْهُ ذِكْرا . فقلت له لا تُؤَاخِذْنى بمَا نَسِيتُ وَلَنْ أَعُودَ إلى مثلها ، وائتمرت بأمره ، ونَضَوْتُ عنى ثيابى [٥] وغَطَسْتُ فى ماء العين ، فأَحْسَسْتُ إثْرَ ذلِكَ

---

(١) شجراء : ملتفة كثيرة الأغصان كأنها أجمة

(٢) السماء هنا : ما علا وارتفع

(٣) السنخ : الأصل

(٤) عين ثرة : غزيرة الماء ، ونضاخة : فوارة غزيرة

(٥) نضوت : نزعت

كأنّ شيئاً من أدران الإنسانية كان لا يزال يلتاط بى [١] ثم زال ، وأبدلت من ثم بحالى الأولى أحسن حال ، فقد كنتُ فى الدنيا وقد رقّتْ عظامى ونيّفتُ على الستّين [٢] فأصبحت فى الأخرى ابنَ ثلاثٍ وثلاثين ، وقد كنت فيها جَهْمًا دَمِيماً جافىَ الطّلْعَةِ مَقْبُوحَ الْخِلْقَةِ [٣] فكانَ لى وجْهٌ كزٌّ أشوه كُرْشوم شَنْعَنع [٤] يَشُقُّ مَنْظَرُهُ على الحَدَق

يُفْزَعُ الصِّبْيَةُ الصِّغَارُ بِهِ

إذا بكى بَعْضُهُمْ فلم يَنَمِ

وكان لى مِخْطَمٌ أُنافِيٌّ كَوِجار الضب [٥] ياعجبا كيف احتَمَلْتُهُ فى العاجله ، ما يُرْبى على الستّينَ سَنَه ، وشَفَتَانِ

---

(١) يلتاط : يلتصق

(٢) رقت عظامه : كبر وأسن ، ونيف على كذا : زاد

(٣) جهم : كريه عبوس

(٤) كز: قبيح، وكذلك أشوه وكرشوم وشنعنع، وقبح هذه الألفاظ يناسب قبح مدلولها

(٥) مخطم : أنف ، وأنافى: عظيم؛ تقول رجل أنافى : أى عظيم الأنف ووجار الضب : جحره

غَلِيظَتان هَدْلاوان كأنهما مِشْفَرَا بَعير ، أو طُرًّا من فيل [١]
وثالِثَةُ الأثافيِّ [٢] أنى كنت وقد مَشَتْ رَوَاحلى وأجْهَدَ القَتِيرُ فِيّ واشتعَل الرأس شيباً [٣] ، وكفى بالشيب وحده عيبا .

يامَنْ لِشَيْخٍ قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُهُ
أَفْنَى ثلاثَ عمائِمٍ أَلْوَانا
سَوْدَاءَ حَالِكَةً وَسَحْقَ مُفَوَّفٍ
وأَجَدَّ لَونا بعد ذَاكَ هِجَانا [٤]

---

(١) هدلاوان : مسترخيتان ، ومشفر البعير : شفته ، وطرا : قطعا

(٢) الأثفية : الحجر توضع عليه القدر ، وثالثة الأثافى : القطعة من الجبل تجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها ويقال رماه بثالثة الأثافى : أى بالشركله

(٣) يقال مشت رواحله : إذا شاب وضعف ، والقتير : الشيب أو أوائله وأصله مسامير الدرع وسمى قتيراً لأنه قتر : أى قدر

(٤) من أبيات جميلة أولها

ذهب الشباب فلا شباب جمانا وكأن ماقد كان لم يك كانا
وطويت كفى ياجمان على العصا وكفى جمان بطيها حدثانا
يامن لشيخ البيتين ... ... وبعدهما

آهِ آهةَ الرَّجُلِ الْحَزين من الشيب ، وياحسرتا على الشباب ؛ . . . الشباب ! وهل الدنيا غَيرُه ؟ ! هَلِ الحياةُ بمطايبها ومناعمها تُستَطاب ، إلَّا فى أيام الشباب ؟ ! وما متاع الدنيا إذا ولَّى الْمُقبِلانِ : الشَّبابُ والصِّغَر ؟ ! وما الْمَجْدُ وَالمَالُ إذا أقبلَ الْمدْبِرَانِ الشيبُ والكِبَر ؟

لا تَكْذِبَنّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
مِنَ الشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ

صحب الزمان على اختلاف فنونه فأراه منه كراهة وهوانا
قصر الليالى خطوه فتداني وحنون قائم صلبه فتحانى
والموت يأتى بعد ذلك كله وكأنما يعنى بذاك سوانا

قوله جمانا : يريد جمانة ، فرخم . ويقال للشيخ قد تخدد : يراد تشنج وتقبض جلده ، وقوله أفنى ثلاث عمائم ألوانا : يعنى أن شعره كان أسود ثم حدث فيه شيب مع السواد ، فذلك قوله وسحق مفوف والتفويف التنقيش وهو مأخوذ من الفوف - بضم الفاء - وهى النكتة البيضاء التى تحدث فى أظفار الأحداث وسميت بذلك لتشبهها بالفوفة من النواة وهى الحبة البيضاء فى باطن النواة التى تنبت منها النخلة ، والسحق : الخلق يقال عنده سحق ثوب . وقوله أجدّ لونا : أى استجدّ لوناً ، والهجان الأبيض : وهى العمامة الثالثة يعنى حين شمله الشيب

لا تَلْحَ مَنْ يَبْكِي شَبِيبَتَهُ (١)
إلّا إذَا لَمْ يَبْكِهَا بِدَمِ

لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَتِهَا
إلّا زَمانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ

كالشَّمْسِ لا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا
حَتَّى تُغَشَّى الأرْضَ بالظُّلَمِ

ولَرُبَّ شَيْءٍ لا يُبَيِّنُهُ وُجْدَانُهُ إلّا مَعَ الْعَدَمِ

والبِيضُ الْحِسَان ، وَهُنَّ الرَّوْحُ وَالرَّيْحَانُ (٢) ، وقُرَّةُ العَيْنِ (٣) ، والسَّكَنُ لذى الأَين (٤) ، وغاياتُ الأمَل ، ومُنْسِيَاتُ الأجَل ، هل تَظْفَرُ مِنْهُنَّ بالْوُدِّ والهوى ؟ مالم تَخْطُر بينهن بِرِدَاءِ الصِّبَا ، وبأىّ شفيع تخطب أيها الشيخ وُدّ الغانيات ، وقد سَوَّد ما بينك وبَيْنَهُنَّ بَيَاضُ تلك الشَّعَرَات :

---

(١) لحا الرجل يلحاه : لامه وعذله

(٢) البيض: النساء ، وروح : استراحة وبرد ورحمة، والريحان ـ فى الأصل ـ : كل نبت طيب الريح وفسر بالرزق

(٣) قرة العين : ما تقر به العين وتسر

(٤) السكن : مايسكن ويرتاح إليه ، والأين : التعب والإعياء

فإنْ تَسْأَلُونِى بِالنِّسَاءِ فإنَّنِي
خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ المَرْءِ أَوْ قَلَّ مالُهُ
فَلَيس له فى وُدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ
وشَرْخُ الشَبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ (١)

* * *

أَعِرْ طَرْفَكَ المِرْآةَ وَانْظُرْ فإنْ نَبَا (٢)
بِعَيْنِكَ عَنْكَ الشَّيْبُ فالْبِيضُ أَعْذَر
إذا شَنَأَتْ عَيْنُ الْفَتَى شَيْبَ نَفْسِهِ
فَعَيْنٌ سِوَاهُ بالشَّنَاءَةِ أَجْدَرُ (٣)

يقولون : فى الشَّيْبِ الوَقَار ، والعِفَّةُ والحِلْمُ والأَدَب له تَبَع (٤) ، وتِلْكَ عَمْرَكَ اللهَ حُجَّةٌ لاجِئٌ إليها العاجزون

---

(١) بالنساء : عن النساء ، وشرخ الشباب : ريعانه
(٢) نبا : قبح فلم تقبله العين
(٣) شنأت : أبغضت ، والشناءة : البغضة ، والبيض : النساء
(٤) العفة : ترك الشهوات ، والحلم : الأناة والعقل

فى المَوْتِ الوَقَارُ الأكْبر : وفى الشَّيْب وَقار لأنه الموتُ الأصْغَر ؛ وهل مايَزْعُمونه عِفَّةً إلا لِأنْ عُرِّيَتْ أفْرَاسُ الصِبا وَرَوَاحِلُه (١) ، وَطَارَتْ دَواعى المَرَاحِ ووَسائلُه

ليت الحوادثَ باعَتْنِي الَّذى أخَذَتْ
مِنِّى بِحِلْمِى الذى أعطَتْ وَتَجْرِيبِي (٢)

فمَا الْحَداثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ
قد يُوجَدُ الحِلْمُ فى الشُّبَّانِ وَالشِّيبِ

---

(١) من قول زهير : -

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
وعرّى أفراس الصبا ورواحله

صحا : سلا ، من الصحو خلاف السكر ، وأقصر عن الشيء : إذا أقلع عنه . قال علماء البيان : أراد زهير بالأفراس والرواحل أن يبين أنه ترك ما كان يقترفه زمن الصبا من الجهل والغىّ وأعرض عن معاودته فبطلت آلاته ؛ فشبه الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة قضى منها الوطر فأهملت آلاتها فأثبت له الأفراس والرواحل ؛ فالصبا من الصبوة بمعنى الميل إلى الجهل والفتوة ؛ ويحتمل أنه أراد دواعى النفوس وشهواتها والقوى الحاصلة لها فى استيفاء اللذات ، أو أراد الأسباب التى قلما تتآخذ فى اتباع الغىّ إلا أوان الصبا وعنفوان الشباب

(٢) الحلم : الأناة والعقل . يقول : إن الحوادث أخذت شبابه وأعطته العقل والحنكة ، فبودّه لو ردت عليه الشباب واستردت الحلم

* * *

شُعْلَةٌ فى المفارق آستَوْدَعَتْنى

فى صَمِيم الفُؤادِ ثِكْلًا صَمِيما

دِقَّة فى الحياةِ تُدْعَى جَلَالًا

مِثْلَ مَا سُمِّىَ اللَّدِيغُ سَلِيما (١)

حَلَّمَتْنِى زَعَمْتُمُ وأَرَانِى

قبل هذا التحليمِ كنتُ حليما

ويقولون : إنَّمَا الرَّأْىُ للشيخ ؛ لِأَنَّ التَّجَارِيبَ قد حَنَّكَتْه ، وَتَصَارِيفَ الأَدْهَارِ قدْ سَبَكَتْه (٢) ، وآضَ وقدْ ضَرَبَ آباطَ الأُمورِ ومَغَابِنَهَا (٣) ، واسْتَشَفَّ ضَمَائِرَهَا وبواطِنَهَا ؛ فَهَلَّا قالوا

---

(١) اللديغ : الذى لدغته ـ عضته ـ الحية والعقرب ، ويسمون اللديغ سليما لأنهم تطيروا من اللديغ فقلبوا المعنى كما قالوا للحبشى : أبو البيضاء ، وكما قالوا للفلاة : مفازة ، تفاءلوا بالفوز وهى مهلكة ، فتفاءلوا بالسلامة

(٢) حنك الدهر الرجل : جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكيما ؛ وسبكته : هذبته

(٣) آباط : جمع إبط ؛ والإبط معروف ، وهو أيضا أسفل حبل الرمل ومسقطه ، والمغبن : الرفغ ؛ أى باطن الفخذ ؛ والمعنى ظاهر

إنَّ الأيّامَ نَحَتْنَ أَثْلَتَه (١) ، وأَخْمَدَتْ وقْدَتَه ، وأَبْرَدَتْ عِظَامَه ، وفَلَّتْ حُسَامَه (٢) ؛ وأَساءَ عليه أَثَرُ السِنّ ، فأَخَذَت الأيام من لُبِّه كما أَخَذَتْ مِن سِنِّه . . . وإنَّما الشيخُ لدَى النَّصَفَة والمَعْدَلَةِ كالزَّنْدِ الذى قد انْشَلم ، ورَأْىُ الشُّبّان كالزَّنْدِ الصَحِيحِ الذى يَرِى بأَيْسَرِ اقْتِدَاح (٣) . . . ولله دَرُّ الفاروقِ رِضوان الله عليه إذ كان كلما حَزَبَهُ أَمْرٌ (٤) ونَزَلَ به مُعْضِل دعا الفتيانَ واسْتَشارَهم ويقول : هُمْ أَحَدُّ قُلُوبًا . . . على أن من شِيَم الشيوخ — كما يقول حكيم — أن يَسْتَبِدُّوا دَائمًا بِآرَائهم

---

(١) الأثلة : واحدة الأثل ، وهو شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منها ، وخشبه صلب جيد تصنع منه القصاع والجفان؛ وقد وقعت مجازا فى قولهم : نحت أثلته ، إذا تنقصه ؛ قال الأعشى :

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ماأطت الإبل

« أطت : حنت »

(٢) الحسام : السيف القاطع ، وفلته : ثلمت حده

(٣) النصفة : الإنصاف ؛ أى إعطاء الحق أو العدل ؛ والمعدلة : ضد الجور ، وانثلم : انكسر ، والزند : العود الذى يقتدح به النار ، ووري الزند يرى: اتقد ؛ وقدح بالزند واقتدح: رام الإيراء به

(٤) حزبه أمر : نزل به مهم واشتد عليه أوضغطه

ويَجْمُدُوا أَبَدًا عَلَى أفكارهم :

والشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ

حَتَّى يُوَارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ [١]

ومِنْ ثَمَّ اعْتَادَ سُكَّانُ جُزُرِ فِيجِى أن يَذْبَحُوا آباءهم مَتَى كَبِرُوا وَحَطَّمَتْهُمُ السِنُّ العالية ، وبهذا يُعَبِّدُونَ سبيلَ التَّطَوُّرِ ويُذَلِّلونَ لأنفسِهِمْ طريق الرُّقِىّ والتَّدَرُّجِ . . . قال الحكيم : وَنَحْنُ فإنّا نتقدم إلَى الوَرَا ، ونَسِيرُ القَهْقَرَى [٢] ، بإلقَائِنا تَقاليدَ أُمورنا ، إلَى شيُوخنا . . . أَمّا أَنَا فلمارأَيْتُنى وقد رُدِدْتُ إلى أَرْذَلِ العُمُر [٣] ، وأَصْبَحْتُ هَامَةَ اليَوْمِ أَوْ غَد [٤] ، وَأَخَذَتْ سَفِينَةُ الشَيْبِ تَقْتَرِبُ بِى مِنْ ساحِلِ المَوْت ، وقد فاتنِى

---

(١) الرمس : القبر

(٢) القهقرى : الرجوع إلى خلف

(٣) أرذل العمر : آخره فى حال الكبر والعجز ، والأرذل من كل شىء : الردىء منه

(٤) هو هامة اليوم أوغد : أى يموت اليوم أوغدا ، والهامة : الرأس ، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذى لم يدرك بثأره تصير هامة تزقو عند قبره ـ تصيح ـ تقول : اسقونى اسقونى ؛ فإذا أدرك بثأره طارت .

الشـــبَابُ ومَا يستتبعه مِن مُتع الحياةِ كُلّ الفَوْت ، وكُنْتُ بِغَرِيزَتِي أَمْقُتُ مَا يُسَمُّونَه الجِدَّ والحِشْمَةَ والْوَقَار : وكُنْتُ مُذْ جِنّ الصِبَا مِفْرَاحًا مِمْرَاحًا لَعُوبًا مُتَوَقِّدًا كأنّى خُلِقْتُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نِار (١) ، فَزِعْتُ فى الكِبَرِ إلَى ابْنَةِ العِنَبِ أَحْتَسِيها (٢) ، وَوَجَدْتُ عَزَائِى كُلَّهُ فِيها (٣) ؛ ومَنْ أَحَقُّ مِنَ الشيخِ بِالرَحِيق (٤) ، وما الذى يَبُلُّ مِنْهُ الرِيق ، ويُصيرُ مَاءَه جَارِيًا جَديدا ، بَعْدَ أن كان رَاكِدًا آسِنًا بَلِيدا (٥) ، ويُضِيءُ سِرَاجَهُ بَعْدَ أنْ طَفِئَ وَخَبَا (٦) ، وَيُورِقُ غُصْنَهُ بَعْدَ أنْ ذَبُلَ وذَوَى ، ويُحْيِي مِنْهُ مَيِّتَ النَفْس ؛ بَعْدَ أن ظَلَّلَتْهُ ظِلَال الرَمْس —

(١) أمقت : أبغض ، وجن الصبا : حداثته ، وجن كل شيء : أول شدّاته ؛ ومارج من نار : نار لادخان لها ، خلق منها الجانّ

(٢) فزع إلى كذا : لجأ إليه واستعان به ؛ وابنة العنب : الخمر ، واحتساؤها : شربها

(٣) عزائى : تأسّى وحسن صبرى

(٤) الرحيق : الخمر

(٥) آسنا : كآجن ، لايشربه أحد من نتنه ؛ والكلام كله على المجاز ، كما لا يخفى

(٦) طفئت النار : ذهب لهبها وجمرها ؛ وخبت النار : سكنت وطفئت وخمد لهبها

غيرُ الشَّراب ؟ ! !

لاَحَ شَيْبى فَرُحْتُ أمْرَحُ فيه
مَرَحَ الطِّرْفِ فى العِذَارِ المُحَلَّى
وتَوَلَّى الشَّبابُ فازْدَدْتُ رَكْضا
فى مَيَادِينِ بَاطِلى إذْ تَوَلَّى
إنَّ مَنْ سَاءَهُ الزَّمَانُ بِشَيْءٍ
لأَحَقُّ امْرِئٍ بأن يتَسَلَّى (١)

* * *

آشْرَبْ عَلَى مُوقِ الزمانِ ولاتمُتْ
أسَفاً عليه دَائمَ الحَسَراتِ (٢)

* * *

لا تَنَمْ واغْتَنِمْ مَسَرَّةَ يومٍ
إنَّ تحتَ التُّرابِ نَوْمًا طَويلا

---

(١) الطرف : الكريم الطرفين — الأب والأم — من الخيل ؛ والعذار من اللجام : ماسال على خدالفرس ، والمحلى : المزين بالحلى . يريد مصاغ الفضة

(٢) الموق : حمق فى غباوة ؛ والموق أيضاً : طرف العين مما يلى الأنف

وبعد؛ فيرحم الله حَبيبَ بْنَ أَوْسٍ إذ يقول :

لو رَأى اللهُ أنّ فى الشَّيْبِ خَيْرًا

جاوَرَته الأبْرارُ فى الخُلْدِ شِيبَا (١)

وكذلك أبْدَلَنِي اللهُ إثْرَ دُخولِي الجَنَّةَ بِشَيْبِي شَبابا ، وبِقُبْحِي حُسْناً لُبابا (٢) ، فَاسْتَحْلَتُ - بحمد الله - إلى شابٍّ غَضِّ بَضّ (٣) أَهْيَفِ القَدّ (٤) ، أَدْعَجِ العَيْنِ (٥) ، مَقْرُونِ الحاجِبَين ، أَسِيلِ الخَدَّيْنِ (٦) ، رَقيقِ الخَصْر ، حُلْوِ الشمائل ، قَيْدِ النَّواظر (٧) ؛

---

(١) ورد فى الآثار: أن أهل الجنة لا يدخلونها إلا شباناً أبناء ثلاث وثلاثين

(٢) لباب كل شيء : خالصه وخياره

(٣) غضاضة الشباب : نضارته وطراوته ؛ والبض : الرخص الجسد الناصع البياض

(٤) الهيف : رقة الخصر وضمور البطن

(٥) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها ، أو شدة سواد سوادها مع شدة بياض بياضها

(٦) خد أسيل : سهل لين دقيق مستو

(٧) قيد النواظر : أى أنه لحلاوته كأنه يقيد العيون فلا تنظر إلى غيره

أمّا الوَجْهُ فَقَدْ صار بَعْدَ هذا القُبْحِ كأنّهُ البَدْرُ ليلةَ التّمام[1]، وأمّا الأنف الأُنَافِيُّ فقد حَالَ إلى قَصَبَةِ دُرٍّ وحَدِّ حُسَام، والفَمُ فَقَدْ آضَ إلى حَلْقَةِ خَاتِم؛ أمّا العينُ فَعَينُ أَحْوَرَ مِنْ جَآذِرِ جَاسِم[2]:

فإذا بَدَا اقْتَادَتْ مَحَاسِنُه ... قَسْرًا إليه أَعِنَّةَ الحَدَقِ

لا شَيْءَ إلّا وَفِيهِ أَحْسَنُه ... فالعَينُ مِنْهُ إليهِ تَنْتَقِلُ

فَوائِدُ العَيْنِ فيه طارِفَةٌ[3] ... كأنّما أُخْرَيَاتُهُ أُوَلُ

---

(١) يقال لليلة التى يتم فيها القمر: ليلة التمام - بفتح التاء.

(٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية، والحور: شدة بياض بياض العين، وسواد سوادها. وجاسم: موضع بالشام، قال عدى بن الرقاع:

لولا الحياء وأن رأسى قد عفا ... فيه المشيب لزرت أمّ القاسم

فكأنها بين النساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم

(٣) طارفة: يريد متجددة

الأديب يركب زورقاً فى الجنة

حدّث الأديب الثقة قال :

ثم أَجَلْتُ بَصَرِى حَوَالىّ فوجَدْتُ فى أَقْرب النّهْرَيْنِ إلينا زَوْرقًا جَميلًا أَلاقاً يَتَلَأْلَأُ تَلَأْلُؤَ النّجْم الساطع ، والكوكب اللّامع ، وقد قَامَ عَلَى جَالَيْهِ الوِلْدَانُ المُخَلّدُون[1] ، وحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُون[2] ، فَسَمَتَ نَبِىُّ الله الخِضرُ سَمْتَه ، فَتَبِعْتُه ، ثُمّ نَزَلَ ، فَنزلْتُ ، فَتَلَقّانَا الوِلدانُ بَاشّينَ بِنَا هَاشّين ، فَرِحين مُسْتَبْشِرين ؛ ومَا كِدْنا نَضَعُ أَقْدامَنا فِي الزّوْرَقِ حَتّى أَقْلَعَ وتَقَاذَفَ بِنَا فِي النّهْرِ وانْساب انْسِيابَ الحُبَاب ، ومَضَى مُضِىّ العُقَاب ، وصَارَ يَطْوِى النّهرَ طَىّ السِّجِلّ لِلْكِتَاب[3] :

---

(١) جالاه : جانباه

(٢) عين : جمع عيناء : واسعة العين عظيمة سوادها ، ومنه قيل لبقر الوحش : عين ، صفة غالبة ؛ ولؤلؤ مكنون : مصون مستور من الشمس وغيرها

(٣) الحباب : الحية . والعقاب : طائر من الجوارح معروف . والسجل هنا : الكاتب ، أو الرجل ، بلغة الحبش

تَرَى الحركَاتِ منْه بِلا سُكُونِ
فتَحْسَبُها « لِسُرْعَتِه » سُكُونَا
كسَيْرِ « الأرْضِ » لَيْسَ بِمُسْتَقِرٍّ
وليسَ بِمُمْكِنٍ أنْ يَستَبِينَا

أمّا الزورقُ فَمِنَ الذّهَبِ الوَهّاج الضّحْيان[1]، المُسَمَّرِ بِالمَاسِ والياقوتِ والمَرْجان ؛ أمّا شِراعُه فَمِنَ الخز الأدْكَن[2] ، وحِبالُها مِنَ الدِّمَقْسِ المُفتّل[3] ؛ وأما دَوْقَلُهُ فَمِنَ اللُّجَيْن[4] ، وسُكّانُه فَمِنَ الذّهَبِ العَيْن[5] ؛ وما أجْمَلَ المُرْدِيّ ؛ فى يَدِ النُّوتِيّ[6] ! وقد فُرِشَ الزّوْرَقُ بِزَرَابِيّ مَبْثُوثَةٍ مِن إسْتَبْرق ، ونَمَارِقَ مَصْفُوفَةٍ من سُنْدُسٍ أخْضَرَ

---

(١) الضحيان : البراق المضيء

(٢) الخز : الحرير . والأدكن : المائل لونه إلى السواد .

(٣) الدمقس : الحرير الأبيض والديباج

(٤) الدوقل : خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يمد عليها الشراع ؛ وتسميه البحرية : الصارى؛ واللجين : الفضة

(٥) السكان : الدفة

(٦) المردى : خشبة تدفع بها السفينة ، والنوتى : الملاح

وَدِيباجٍ أزْرَق (١) .

بُسُطٌ أجادَ الرسمَ صانِعُها
وزَهَا عَليها النَّقْشُ والشَّكْلُ
فَيَكادُ يُقْطَفُ مِنْ أزاهِرِها
ويَكادُ يَسْقُطُ فَوقَها النَّحْلُ

وأنتَ فإذا أنْعَمْتَ فيـــه النظر ، وهُوَ يَشُقُّ طائراً عُبابَ النهر ، وحَواليه زَوارِقُ أخْرَى تُسابقُه ، ولكنها لا تَكاد تَلْحقُه ؛ حَسِبتَ طَواوِيسَ أبرزت رقابَها ، ونَشَرَتْ أجنِحَتها وأذْنابَها ؛ وكأنها إذا جَدّتْ فى اللَّحاق ، وتَنافَسَتْ فى السِّباق ، نوافِرُ نَعَام ، أو حَوافِلُ أنعام ؛ وَوَيْلى من الوِلدانِ وَهُمْ يَجْدِفونَ بِمَجَادِيفَ من الجُمَان ، رُءُوسُها

---

(١) قال بعض المفسرين فى قوله تعالى « وزرابى مبثوثة » : الزرابى : النبت إذا اصفر واحمر وفيه خضرة ، فلما رأوا الألوان فى البسط والفرش شبهوها بزرابى النبت ، وكذلك العبقرى من الثياب والفرش ؛ والزرابى : جمع زربية ، والمراد هنا البسط ذوالخمل ؛ والإستبرق : الديباج الغليظ ؛ والنمارق جمع نمرقة : الوسادة يتكأ عليها

من العِقْيَان [١] ، كأَنهَا طَيْرٌ تَنْفُضُ خَوَافِيها [٢] ، أَوْ حَبَائِبُ تُعَانِقُ حبائِبَ بِأَيْدِيهَا ، فى ماءٍ جَاشَ آذِيُّهُ [٣] وهُوَ أَصْفَى من البِلَّوْر ، وأَبْيَضُ مِنَ الفِضَّة ، وَأَحْلَى مِنَ الشَهْدِ :

هُوَ الْجَوُّ مِنْ رِقَّةٍ غَيْرَ أَنَّ
مَكَانَ الطُّيورِ يَطِيرُ السَّمَكْ

طِينُهُ الْمِسْكُ الأَذْفَر ، [٤] ورَضْرَاضُهُ الدُّرُّ الأَبْيَضُ والياقُوتُ الأَحْمَر [٥] ، وحِفَافاهُ قِبابُ اللُّؤْلُؤِ الْمُجَوَّفِ الْمُقْمِر [٦] ، تُطِلُّ عَلَيْهِ القُصُورُ الْمُشَيَّدَةُ الْمَبْنِيَّةُ مِنْ صُنُوفِ الجوهر ، تَحُفُّهَا الرِّيَاضُ الضَّوَاحِكُ التِى تَسْتَوْقِفُ فيهَا حَدَقُ الأزاهر ، حَدَقَ النَّوَاظر :

---

(١) الجمان هنا : الفضة ، والعقيان : الذهب

(٢) الخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه ، خفيت ؛ وخوافيها ـ هنا ـ تقرأ بسكون الياء للسجع

(٣) آذيه : موجه ، وجاش : ارتفع

(٤) الأذفر : الذكى الريح

(٥) الرضراض : الحصى الصغار

(٦) حفافاه : جانباه

الأنفُ والطَّرْفُ فيها يَسْرَحانِ مَعاً

فى مَبْسِمٍ أُرِجٍ أوْ مَنْظَرٍ قَشِبِ

✿ ✿ ✿

وَالمَاءُ يَفْصلُ بَيْنَ زَهْرِ الرَّوْ

ضِ فِي الشَّطّيْنِ فَصْلَا

كَبِسَاطٍ وَشْيِ جَرّدَتْ

أيْدِى القِيانِ عليه نَصْلا

وأفانينُ الطّيْرِ بالنّهْرِ مُحْدِقه ، وَغَرَائِبُهَا بالْغُصُونِ مُعلّقَه ، مُتَغايِرَة الألْوَانِ والصِّفات ، مُتَنَوِّعَة الأصْوَاتِ واللُّغَات :

وُرْقٌ تُغَنِّى عَلَى خُضْرٍ مُهَدَّلَةٍ

تَسْمُو بِهَا وتَمَسُّ الأرْضَ أحْيَانا

تَخَالُ طَائِرَهَا نَشْوَانَ مِنْ طَرَبٍ

والْغُصْنَ مِنْ هَزِّهِ عِطْفَيهِ نَشْوَانا

وتَنْظُرُ فَتَرَى أسرابَ الإوَزِّ وَالبَطِ ، مَنْشُورَةً فى الماء والشّطّ :

وكأنّ الطّيورَ إذْ وَرَدَتْهُ

مِنْ صَفَاءٍ به تَزُقُّ فِرَاخا [1]

وأقاطِيعَ الظّباءِ والبَقَر ، تَطْفو وتَرْتَعُ على حِفافَيِ النّهَر :

ما إنْ يَزَالُ عليه ظَبْيٌ كارِعٌ

كَتَطَلّعِ الْحَسْنَاءِ فِي الْمِرْآةِ

والسّمَكُ يعوم بَعْضُهُ فى المَاء ، وبَعْض يَنْزُو [2] فى الفضاء :

يَعُمْنَ فيهِ بأَوْسَاطٍ مُجَنّحَةٍ

كالطيْرِ تَنْفُضُ فى جَوٍّ خَوافيها

ومازِلْتُ فى هذه النّزْهَةِ الفِرْدَوْسِيّةِ التى يَقْصُر عنها وصْفُ الواصف حتى رسا بنا الزورق على قَصْرٍ مُنِيفٍ بَهِيج ، فى رَوْضٍ مُغَنٍّ ضَاحِكٍ عَبِقِ الأرِيج ، يختال حُسْناً ونَضارَه ، ويُزْهَى رُواءً وغَضارَه :

---

(١) زق الطائر الفرخ يزقه : أطعمه بفيه

(٢) ينزو : يثب

أتاكَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكا
مِنَ الْحُسْنِ حَتَّى كادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فَنَظَرَ إِلَيَّ نَبِيُّ اللهِ الخضرُ باسمًا وقال : أَتَدْرِي لِمَنْ هـذا القصر ؟ هـذا قصرُ أَحَبِّ الناس إليك ، هَذا قصرُ أستاذِك فى الدنيا « الشيخ محمد عبده » ، وإنى آنَسُ مِنْكَ التَّوْقَ إلى لقائه ، فَهَلُمَّ وَسَأُفارِقُكَ إلى حين .

* * *

حدّث الأديب الثقة قال :

وَما كِدْتُ أُزَايِلُ الزَّوْرَق وَأَضَعُ قَدَمَيَّ فِي الشَّاطِئِ حَتَّى تَلَقَّانى الوِلدانُ الْمُخَلَّدُون ، يَتَرَقْرَقُ فى وُجُوههم مَاءُ النعيم النَّضْر ، وَحُورٌ عِينٌ كَأَمثال اللُّؤْلُؤ الْمَكْنُون ، يَخْتَلْنَ فى ثِيَابٍ من سُنْدُسٍ خُضْر ؛ ثم أَطَافُوا بى كما يُطِيفُ وِلدانُ أَهلِ الدنيا بالحميمِ يَقْدَمُ مِنْ غَيْبَتِه ، ثم مَشَوْا بى على رُودٍ وَمَهَلٍ [1] فى بُستانٍ مُشْرِقٍ مُونِقٍ

---

(١) مهل : عطف تفسير لرود ؛ تقول منه : أرود فى السير : أى ارفق

تَزْدَهِرُ أَزْهارُه ، وتشتَجِرُ أَشْجارُه ، وتَسْتَأْسِدُ نجُومُه [١] ويُجَنّ جَمِيمُه [٢] ، وتَغَرِّد أَطْيارُه . وتَجْرِى أَنهارُه ، ثم اسْتَشْرَفْتُ فآنَسْتُ — على غَلْوَةِ سَهْمٍ مِنّا وفِى بُحْبُوحَةِ البُسْتانِ [٣] — خَيْمَةً من اللُّؤْلُؤِ المُجَوَّفِ أَطنابُها مِنَ الزَبَرْجَد ، وأَوْتادُها مِنَ الياقوت الأَحْمَر : حَتّى إذا وَصَلَ الوِلْدانُ إلى الخَيْمَةِ أشاروا إلىّ بالدخول ، فَرَمَيْتُ ببَصَرى فَرَأَيْتُ ثُلَّةً مِنْ خِيَرَةِ المِصْرِيين [٤] جالسين كَجُمّاعِ الثُرَيّا على سُرُرٍ مُتَقابلين [٥] :

بِبِيضِ الوُجُوهِ كريمةٍ أحسابُهُمْ شُمِّ الأُنوفِ من الطِرازِ الأول

ومن عرفت منهم : الشيخ محمد عبده ، والشيخ حسن الطويل : ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وقاسم أمين ، وأحمد فتحى

---

(١) النجم من النبات : كل ما نبت على وجه الأرض ونجم على غير ساق : واستأسد النبت : بلغ والتف وقوى

(٢) الجميم : النبت الكثير ، وجنونه : بلوغه مداه

(٣) استشرف : رفع رأسه وعينيه ، وآنست : رأيت ؛ والغلوة : قدر رمية سهم على أبعد مدى . والبهرة : الوسط

(٤) الثلة بالضم : الجماعة من الناس ، وفى التنزيل : ثلة من الأولين وثلة من الآخرين

(٥) جماع الثريا : مجتمعها

زغلول ، ومحمود سامى البارودى ، وإسماعيل صبرى ، وإبراهيم المويلحى ، وحفنى ناصف ، وحسن جلال ، وحمزة فتح الله ، وملك ناصف « باحثة البادية » ، وعبده الحامولى ، وسلامه حجازى ، وإمام العبد ؛ فَسَلَّمْتُ فَرَدُّوا علىّ السلام ، وكأنى بهم وقد عرفونى ، فأقبلوا علىّ يصافحونى ويعانقونى أحرّ عناق ؛ وأشرقت وجوههم على إشراقها أيّما إشراق ؛ ونظرتُ فرأيتُ الملائكةَ يدخلون عليهم من كلّ باب : سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون ...

وبعد أن اطمأنّ بنا المجلس دخل علينا سربٌ من الحورِ العين ، يحمل بعضهنّ أطباقًا من الذهب فيها من فاكهة الجنّة ألوان ، وبعض يحملن الورودَ والرياحين ، وأخريات يشتلن ألوانًا من الكؤوس والأباريق والدنان[1] :

وشرابًا ألذّ من نظرِ المعـ
ـشوقِ فى وجهِ عاشقٍ بابتسام

(١) يشتلن : يرفعن ؛ واشتال : بمعنى رفع ، قال الراجز :

* حتى إذا اشتال سهيل فى السحر *

لَا غَلِيظًا تَنْبُو الطَّبِيعَةُ عَنْـهُ

نَبْوَةَ السَّمْعِ عَنْ شَنِيعِ الكَلَامِ

* * *

مِنْ سُلَافٍ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ

يَتَمَنَّى مُخَيِّرٌ أَنْ يَكُونَا

أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمَ مِنْهَا

وَتَبَقَّى لُبَابُهَا المَكْنُونَا

فَإِذَا مَا لَمَسْتَهَا فَهَبَاءٌ

تَمْنَعُ اللَّمْسَ مَا تُبِيحُ العُيُونَا

فِي كُؤُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ

جَارِيَاتٌ بُرُوجُهَا أَيْدِينَا

* * *

تُعَاطِيكَهَا كَفٌّ كَأَنَّ بَنَانَهَا

إِذَا اعْتَرَضَتْهَا العَيْنُ كَفُّ مَدَارِ

* * *

حَوْرَاءُ إِنْ نَظَرَتْ إِلَيْـ

ـكَ سَقَتْكَ بِالْعَيْنَيْنِ خَمْرَا

* * *

فِي مَجْلِسٍ ضَحِكَ السُّرُورُ بِهِ

عَنْ نَاجِذَيْهِ وَحَلَّتِ الْخَمْرُ

فَتَفَكَّهْنَا جَمِيعاً بِفَاكِهَةِ الْجَنَّةِ وَتَشَمَّمْنَا الْوُرُودَ وَالْأَزَاهِرَ وَالرَّيَاحِينَ : ثُمَّ طِيفَ عَلَيْنَا بِالرَّاحِ وَأُدِيرَتْ بَيْنَنَا الْكُؤُوسُ وَكُلَّمَا عُرِضَ عَلَيْهِ الشَّرَابَ ، وَكُلُّنَا شَرِبَ مَاعَدَا إِمَامَ الْعَبْدِ : فَانْتَهَزْتُ فُرْصَةَ تَشَاغُلِ الْإِخْوَانِ بِالتَّفَكُّهِ وَالشَّرَابِ ، وَحِرْمَانِ إِمَامِهِمْ مِنَ الْعُقَارِ[1] : فَاخْتَلَسْتُ الْحَدِيثَ إِلَيْهِ اخْتِلَاسَ النَّسِيمِ لِنَفْحَةِ الْأَزْهَارِ ، وَاسْتَنَبْتُهُ اسْتِنْبَاتَ الشَّمْسِ لِرُضَابِ طَلِّ الْأَسْحَارِ[2] ، وَأَلْقَمْتُهُ أُذُنِي فَصَبَّ فِيهَا حَدِيثاً لَمْ نَشْعُرْ مَعَهُ بِوَقْتٍ : إِذْ كَانَ أَوْحَى[3] مِنْ وَمْضَةِ بَرْقٍ : وَقَدْ مَرَّ دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ الْإِخْوَانُ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ فِي دَارِ السَّلَامِ غَيْرُهُ فِي دَارِ الْأَحْزَانِ ، قُلْتُ لَهُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ أُرِيدُ مُدَاعَبَتَهُ :

---

(١) العقار : الخمر

(٢) الرضاب : الريق ، ورضاب الطل والندى : ماتقطع منه على الشجر ، والرضاب : البرد ، والطل : المطر الضعيف

(٣) أوحى : أسرع

لَعَلّ السَبَبَ يا إمام ، من حِرْمانِكَ المُدام ؛ أنك كُنْتَ فِي الدُنيا من السُّودان ، لَا مِنَ البِيضان ، وهَلْ يَسْتَوِى اللَّيْـلُ وَالنَهار ، أمْ هَلْ تَستوى الظُلُماتُ والأنوار ؟!! فافْتَرّ إمام وَأَوْمَضَ[1] حتى تَبَدّتْ نَواجِذُه : ثُمّ ضَحِكَ ضِحْكَتَهُ العَالِيه ، المعروفةَ عنه فى الدار الفانيه ؛ وكانَتْ وَحْدَها لِتَفْجِير يَنَابِيعِ الضَحِكِ فى صُدورِ جُلّاسِهِ كافِيه ؛ ثم قال : لقد أَدْمَنْتُ يا أخى شُرْبَ الخَمرِ فى الحياةِ الدُنْيا ومَا زِلت أُعَاقِرُها حتى صَرَعَتْنى وأَثْأَرَتْ منى ، فهَلْ تَشْرَئِبُّ أطْماعِى إلَى أنْ أحْظَى بهـا فى الآجِله ، بَعْدَ أن نِلتُ منها هذا النَيْلَ فى العاجله ؟ أمَا يَكْفِينِى أنى دَخَلْتُ الجَنّةَ التى أُعِدّتْ لِلمُتّقِين ، وأنى أسْتَمْتِعُ الآنَ بِمِـائةِ حَوْرَاء ، لِأنّ سَوَادِى فى الدُنيا حَالَ بَيْنِى وبَيْنَ كلّ بَيْضاء ، وأنا القائل لذلك فيها :

أنَا لَيْلٌ وَكُلُّ حَسْنَاءَ شَمْس

فَاجْتِمَاعِى بِهـا مِنَ المُسْتَحِيلِ

---

(١) يراد : ابتسم

والقائل :

وَسَوْدَاءَ كاللَّيْـلِ البَهِيمِ عَشِقْتُها
لِأَجْمَعَ بَيْنَ الحَظِّ وَاللَّيْلِ فى عَيْنى
إِذَا ضَمَّنَا لَيْـلٌ تَبَسَّمَ ثَغْرُهَا
فَلَوْلَا سَنَاها بِتُّ فى جُنْحِ لَيْلَتَين[1] ؟

قلت له : وبما ذا دَخلت الجنة يا إمام ؟ قال : بإضْحاكى فى الدُّنيا الأنام ؛ قلت : وهَل الضَحِكُ يُدخلُ صاحبَه جنةَ النَعيم ؟ ! قال : وهل الضَحِكُ إلا آيةُ حُسْنِ الظَنِّ بالله الغفور الرحيم ، ولقد غفَرَ الله لأبى نُوَاس - وهو مَنْ تَعْلَم - إذْ أحْسَنَ ظَنَّهُ بربِّه فقال :

تَبَسَّطْنا عَلَى الآثَامِ لَمَّا
رَأَيْنَا العَفْوَ مِنْ ثَمَرِ الذُّنُوبِ

ويقول :

تَكَثَّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايا
فَإِنَّكَ بَالِغٌ رَبًّا غَفُورا

---

(١) جنح الليل - بضم الجيم وكسرها - لغتان : جانبه ، وهذان البيتان والذى قبلهما لإمام العبد ، رحمة الله عليه

سَتُبْصِرُ إنْ وَرَدْتَ عَلَيْهِ عَفْوًا

وَتَلْقَى سَيِّداً مَلِكا كَبِيرا

تَعَضُّ نَدَامَةً كَفَّيْكَ مِمَّا

تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورَا

ثم قال إمام : ولقد كُنْت أنا الآخر حَسَنَ الظَّنِّ بالله ؛ إذْ كُنْتُ فى الدُّنيا كما تعلمُ رَجُلًا مَفْلوكاً مَحْدُوداً مُحَارَفاً جَدْبَ المَعِيشَةِ مُقَتَّراً علىّ فِي الرِّزْقِ (١) ، أُرَمِّقُ الْعَيْشَ على بَرْض ، حَتَّى لَكَأَنِّى كُنْتُ أَسْتَقْطِرُهُ مِنْ أَخْرَاتِ الإبر (٢) ؛ وكأَن الفضاء ، أَحرقَ سَفَائِنى دُونَ الغِنى والثَّرَاء ؛ ولقد قلت وأنا فى دار الهموم :

خُلقت بَيْنَ أُنَاسٍ لاخَلَاقَ لَهُمْ

فَبَاعَنِي الدِّينُ لِلدُّنْيَا بِلا ثَمَنِ

---

(١) مفلوكا ومحدوداً ومحارفاً : كلها بمعنى المحروم البائس المقتر عليه فى الرزق

(٢) العيش المرمق : الدون اليسير ، وعيش رمق : أى يمسك الرمق ، والبرض : الشىء القليل ، والتبرض : التبلغ بالقليل من العيش ؛ وأخرات الإبر : ثقوبها

لَولَا بَقِيَّةُ دِينٍ أمسكت قلمى

لقلت إن إلٰهَ الخلق لم يرنى [1]

وأنت تعلم :

أنّ الثَّرَاءَ هُوَ الْخُلُودُ وأنّ

المَرْءَ يَكْرُبُ يَوْمَهُ الْعَدَمُ

وَلٰكِنّى عَلى ذٰلِكَ كُنْتُ عِنْدَ قَوْلِ شَاعِرِ الدُّنْيَا شَوْقِى:

فإنّ السَّعَادَةَ غَيْرُ الظُّهُورِ

وغَيْرُ الثَّرَاءِ وَغَيْرُ التَّرَفْ

وَلٰكِنَّهَا فِى نَوَاحِى الضَّمِيرِ

إذَا هُوَ باللؤْمِ لم يُكْتَنَفْ

وكنت لا أهْلَعُ وَلا أسْتَوْهِلُ [2] لِأىّ مَكْرُوهٍ دَعَانِى اللهُ بِهِ ونَزَلَ بِسَاحَتِى ، وَكُنْتُ كُلَّمَا مَسَّنى الضُّرُّ وهَرّ عَلىّ الزَّمَانُ [3] ازْدَدْتُ تِيهًا عَلى الدَّهْرِ ، وسُخْرًا من الأيّام : فكان لِسَانُ حَالى مايَقُولُ ابْنُ دُرَيْد :

---

(١) البيتان لإمام العبد

(٢) الهلع : الجزع ، ووهل واستوهل : ضعف وفزع وجبن

(٣) هر الزمان ، من هر الكلب : نبح وكشر عن أنيابه

لا تَحْسَبَنْ يادَهْرُ أَنِّى ضارِعٌ
لِنَكْبَةٍ تَعْرُقُنى عَرْقَ المُدَى (١)

مَارستَ من لو هَوَتِ الأفلاكُ مِن
جَوانِبِ الْجَــوِّ عَلَيْهِ ما شَكا

هـذا إلَى أنّى نَظَرْتُ فَرَأيْتُ أنَّهُ مَامِنْ إنسان ، فِى دار الأحزان ، إلا وهُوَ آخِـذٌ مِنْ لَأْوَائِهَا بِنَصِيب (٢) ؛ فَكُلُّ مَن فيها لذلك بحَاجَةٍ أىِّ حَاجَةٍ إلى مَنْ يُرَوِّح عَنْهُ ويُهَوِّن عَلَيْهِ . . . وكأنّ الأقْدَارَ الرَّحِيمَةَ إلتى أبَتْ لِحِكْمَةٍ بالِغَـةٍ إلّا أنْ تَجْعَلَ بِجَانِبِ الْخَيْرِ شَرّا ، والنَّفْعِ ضُرّا ، وَالْحُلْوِ مُرّا : أنشـأتْ أمْثالى ليقوموا بمـداواة النُّفُوس ، وتَخْفيف ما يَؤُودُها مِنْ هَمٍّ وبُوس (٣) وَلادَوَاءَ إلّا الدُّعابَةُ والمُجُونُ والضّحِك .

---

(١) ضرع إليه : خضع وذل ، وعرق العظم : أكل ما عليه من اللحم ؛ وعرقته الخطوب : أخذت منه ونالت ، قال :

أجارتنا كل امرئ ستصيبه حوادث إلا تُبتر العظم تعرق

(٢) اللأواء : الشدة

(٣) يؤودها : يكرثها ويجهدها ويشق عليها . وبوس : مخفف « بؤس » : الفقر وشدة الحاجة والضر وما إليها

إنّمَا لِلنّاسِ مِنّا حُسْنُ خُلْقٍ ومِزاحْ
وَلَنَا مَا كانَ فِينَا مِنْ فَسَادٍ وَصَلاحْ

قال إمام : عَلى أَنّ فِي الضَّحِكِ مَعْنًى غريباً من غير هذه البابة [١] وقفتُ فى الدنيا على مُسْتَسَرِّهِ [٢] : ذلك أن الضحك سرٌّ من الأسرار الكبار ، التى تَبْعَث على الإجْلال والإكبار : فقد كنتُ فى الدنيا مَتى أَحْسَسْتُ مِنْ أناس شموخاً وكِبْرِياءً وإزراءً بى وإعْراضاً عنى فانْبَعَثْتُ ضاحِكاً كأَنّنِي أُنْكِرُهُم ولا أَكْتَرِثُ لَهُمْ ولا أَعْبَأُ بهم كأَنْ لم يكونوا شيئاً ـ لا يَلْبَثُونَ أنْ تَسْتَقِيمَ أَخادِعُهُم [٣] ويُطَأْطِئُوا من كبريائهم ... وكُنْتُ كُلَّمَا اسْتَغْرَبْتُ فى الضَّحِك واسْتَغْرَقْتُ ـ على شَرِيطة أَنْ أكُونَ صَادِقاً لا يُرَى علىّ أدنى تَعَمُّل ـ تَحاقَرَتْ إليهم نُفوسُهُم ، وامْتَلأَتْ بى عُيُونُهُمْ ، وانْبَسَطُوا إلىّ ، وأَقْبَلُوا بِنَشَاطهم علىّ ، وَهَلُمَّ حتى أَطُولَهُم وأَرْكَبَ

---

(١) البابة : الوجه

(٢) مستسره : ما استسر وخفى

(٣) الأخادع : جمع أخدع ؛ وهما أخدعان : عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا ؛ واستقامة الأخادع : عبارة عن الإقلاع عن الكبر

يَافُوخَهُم وَٱسْتَوْلِيَ على الأَمَـد . . . فَعليك فِي دَارِ النِّفَاقِ بالضَّحِكِ فإنَّهُ أَمْضَى سِلاحٍ تَنْتَضِيهِ كُلَّمَا أَنِسْتَ مِمَّنْ حَوْلَكَ شَيْئًا مِنَ الزَّهْوِ والعَجْرَفَةِ . . . وَلذَلِكَ سبب : هُوَ أَن الضَّحِكَ عُنْوانُ الهَنَاءَةِ والسَّعَادَةِ ؛ فإذَا ضَحِكْتَ بِكُلِّ قَلْبِكَ كان هذا الضَّحِكُ مَنْبَهَةً لِلنَّاسِ على جَلِيلِ خَطَرِكَ ورِفْعَةِ شَأْنِكَ ؛ فَتَرَاهم بَعْدَ أنْ كانوا يَرْحَمُونَكَ، يَحْسُدُونَكَ ، وبعد أنْ كانُوا يَحْقِرُونَكَ ، يُكْبِرُونَكَ :

إذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى الأنامَ مُعَظَّمًا

فَلا تَلْقَهُم إلا وأَنْتَ سَعِيدُ

وسَبَبٌ آخَرُ : هو أن الضَحِكَ دَلِيلُ الثِّقَةِ بالنَّفْسِ والِاعْتِدَاد بِهَا والإدْلال بِقِيمَتِهَا ، فإذَا ضَحِكْت فإنما ذلك لأنَّكَ بِنَفْسِكَ وَثِقْت ، ولا شَيْءَ يَبْعَثُ على تعظيم قَدْرِكَ مِثْلُ ثِقَتِكَ بِنَفْسِك ، وعَلى العَكْسِ مِنْ ذلك كُلِّهِ : الإطْرَاقُ والاكْتِئاب .

قال الأديب : وكذلكَ كانَ إمام ، فَقَدْ كانَ دَائِماً طَلْقَ المُحَيَّا ضَاحِكَ السِّنِّ ظَرِيفَ المُحَاضَرَه ، بَدِيعَ النَّادِرَه ،

فيكه الأخلاق ، خِفّةَ رُوحِ الزمان ، تُرَاحُ لهُ القلوب ، ويُمازِجُ الأرْوَاح ، وتَشْرَبُهُ الضمائر . وإذا صَحّ أنّ لِلضحك أُمّةً فقدْ كانَ إمام نَبِيُّ أمّةِ الضحك ، وكانَتْ مُعْجِزَتُهُ أنه ما مِنْ إنسان ، كانَ ماكان ، مِن الْخُشونةِ والْوَقار ، والعُبوسِ والاكْفِهْرَار ، والإطْرَاقِ والانْقِبَاض ، والْحُزْنِ والارْتِماض . ثمّ رَأى إماما ، قبل أن يَتَدَفّقَ كَلاما ، إلّا سَرى عنه الهم ؛ وتَبَسّمَ قَلْبُهُ قَبْلَ الفَم ؛ ناهِيكَ بعد ذلك بمُجُونه وطُرَفه ، ونَوادِرِه ومُلَحِهِ ، التى كانت تَفْعَل بِسامِعِيها ، فِعْلَ الرّاحِ بِشارِبِيها ؛ وإنّها لَنِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ الْكُبْرَى ، أنْ وُجِد فى عصرنا مِثْلُ إمام ...

أبُو عَلِيّ أخْلاقُهُ زَهَرٌ
غِبّ سَماءٍ ورُوحُهُ قُدُسُ
يَشْتاقُهُ مَن جَمالِهِ غَدُهُ
ويُكْثِرُ الْوَجْدَ نَحْوَهُ الأمْسُ
أيّامُنَا فى ظِلالِهِ أبَداً
فَصْلُ رَبِيعٍ وَدَهْرُنا عُرُسُ

لا كأناس قد أصبحوا صدأ الـ

عيش كأنّ الدهر بهم حبس

ثم قال إمام : أمّا السوادُ الذى حسبْتَه عابا ، وساءَ مآبا ، فأينَ أنتَ من قولِ اللهِ جلّ شأنُهُ : يا أيُّها النّاسُ إنّا خلقْناكُمْ مِنْ ذكرٍ وأنثى وجعلْناكمْ شُعوباً وقبائلَ لِتعارفُوا إن أكرمَكمْ عِندَ اللهِ أتقاكم ... ومِمّا وردَ فِى الأثر : إن الله لا ينظُرُ إلى صُوَركم ولكِنْ ينظُرُ إلى قُلوبكم . وبديعٌ ماقال ابنُ عمّى سُحَيْم :

إنْ كُنْتُ عبداً فنفْسِى حُرّةٌ كرَماً

أوْ أسودَ اللّوْنِ إنّى أبيضُ الخُلُقِ

وأبو الطيب إذ يقول :

إنّما الجِلْدُ مَلْبَسٌ وابيضاضُ الخُلْـ

ـقِ خيرٌ من ابيضاضِ القباء

وأظُنُّكَ لا تجهلُ قصيدةَ رياحِ بن سُنَيْحٍ الزّنْجِيّ مَوْلى بَنِى ناجِيةَ التى ذكر فيها أكثرَ مَنْ ولَدَتْهُ الزّنْجُ مِن أشراف العرب يُجيبُ بها جريرا حين قال جرير .

لا تَطْلُبَنّ خُؤولَةً فى تَغْلِبٍ

فالزِّنْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمُ أَخْوَالا

فتحرك رِياحُ وقال هذه القصيدةَ وَفيها يقول :

والزِّنْجُ لَوْ لاقَيْتَهم فى صَفِّهِم

لاقَيتَ ثَمّ جَحَاجِحًا أَبْطالا (١)

ولقد أَشَاد الشُّعَرَاءُ فى الدُّنْيا بالسّوَاد ، وَشَبَّبُوا الْقَصَائِدَ بالسَّوْدَاوات ، حَتّى فَضّلُوهُنّ على البَيْضَاوات : وحسْبك مايقول ابن قَلاقس السكندرى :

رُبَّ سَوْدَاءَ وَهْىَ بَيْضَاءُ مَعْنًى

نَافَسَ المِسْكَ عِنْدَهَا الكافُورُ

مِثْلَ حَبِّ العُيُونِ يَحْسَبُهُ النا

س سَوادا وَإِنَّما هُوَ نُورُ

وصُرَّدُرّ إذ يقول :

عَلِقْتُهَا سَوْدَاءَ مَصْقُولَةً سَوَادُ قَلْبِى صِفَةٌ فِيها

---

(١) جحاجح : جمع جحجاح ، وهو السيد الكريم

مَا انْكَسَفَ الْبَدْرُ عَلى تَمِّهِ وَنُورِهِ إِلَّا لِيَحْكِيهَا

لِأَجْلِهَا الأَزْمَانُ أَوْقَاتُهَا مُؤَرَّخَاتٌ بِلَيَالِيهَا

وَلقد أَتَى ابْنُ الرُّومِيّ فى هذا الباب بالعَجب العُجاب ، فكان كما قيل : جَرَى الْوَادى فَطَمَّ على القَرىّ [1] . . . قال من أَبيات يصف جارية سوداء لعبد الملك بن صالح :

سوداءُ لمْ تَنْتَسِبْ إلى بَرَصِ الشُّقْـ

ـرِ ولا كُلْفَةٍ ولا بَهَقِ [2]

لَيْسَتْ مِنَ العُبْسِ الأَكُفِّ وَلَا الفُدْ

ـحِ الشِّفاه الْخَبَائِثِ العَرَقِ [3]

---

(١) طم : علا ؛ وغمر والقرىّ : مدفع الماء من الربوة إلى الروضة ؛ ومثل هذا المثل : جاء السيل فطم الركىّ ، والركى : الآبار

(٢) الكلفة : حمرة كدرة تعلو الوجه ، أو النمش . والبرص والبهق : معروفان

(٣) من عيوب السودان أن أكفهم عابسة متشققة وأطرافهم ليست بناعمة لينة ؛ وكذلك لا يزال الفلح فى شفاههم ـ وهى الشقوق الموجودة فى أوساط الشفاه ـ وكذلك ترى السود متهمة بخبث العرق ؛ فنفى ابن الرومى هذه الصفات عن هذه السوداء

فِي لِينِ سَمُّورَةٍ تَخَيَّرَهَا الفَرَا

ءُ أَوْ لِينِ جَيِّدِ الدِّلَقِ (١)

تُذْكِرُكَ المِسْكَ والغَوالِيَ وَالسُّـ

ـكَّ ذواتَ النَّسِيمِ وَالعَبَقِ (٢)

أَكْسَبَهَا الحُبُّ أَنها صُبِغَتْ

صِبْغَةَ حُبِّ القلوب والحَدَقِ

فَانْصَرَفَتْ نَحْوَها الضَّمائِرُ والأَبْـ

ـصارُ يَعْنِقْنَ أَيُّمَا عَنَقِ (٣)

يَفْتَرُّ ذاكَ السَّوادُ عن يَقِقٍ

مِنْ ثَغْرِها كاللآلِئِ النَّسَقِ (٤)

---

(١) السمور : حيوان برى يشبه ابن عرس وأكبر منه ، ولونه أحمر مائل إلى السواد : يتخذ من جلده فراء ثمينة ، وربما أطلق السمور على جلده : والفراء : بائع الفراء : والدلق : حيوان يقرب من السنور فى الحجم : وهو أصفر اللون ، بطنه وعنقه مائلان إلى البياض

(٢) الغوالى جمع غالية : أخلاط من الطيب ، والسك ضرب من الطيب يركب من مسك وراماك

(٣) العنق : ضرب من السير وهو اسم من أعنق : أى أسرع

(٤) اليقق : الشديد البياض ، والنسق : المنسق يقال در نسق وكلام

كَأَنَّهَا والمِزَاحُ يُضْحِكُهَا

لَيْلٌ تَفَرَّى دُجَاهُ عَنْ فَلَقِ (١)

وبَعْضُ ما فُضِّلَ السَّوَادُ به

والْحَقُّ ذُو سُلَّمٍ وذُو نَفَقِ

أَلا يَعِيبَ السَّوَادَ حُلْكَتُهُ

وقد يُعَابُ الْبَيَاضُ بالْبَهَقِ (٢)

قلت له : إننى يا إمام أعاتِبُك كما كنت أعاتبك فى العاجلة ؛ إذ كنتُ أحاول بذلك اسْتِثَارَةَ دَفائِنك ، واستخراجَ كنوزك ونَوَادِرك ، وإذ كنتُ أُحِبُّك كل الحب هناك ؛ فهل كنت تحبنى كما كنت أحبك يا إمام ؟ قال إمام : وهل تَظُنُّ كما يظن العامة ، وكثير من الخاصة ، أن من أَحبَّ إنساناً أحبه المحبوب ، وتَشَابَكت القلوب والقلوب ؟ ! وأين أنت إذن من قول ذلك الشاعر الجاهلى وقد أصاب مقطع الحق :

نسق ، وثغر نسق : أى منتظم

(١) الفلق : الصبح ، وتفرى : انشق

(٢) الحق ذو سلم وذو نفق : أراد أن الحق يتصرف فى جهات ؛ وضرب الصعود والنزول لذلك مثلا ، وحلكته : سواده

جُنِنَّا على لَيْلَى وجُنَّتْ بِغَيْرِنا
وأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لانُرِيدها
وكيف يَوَدُّ القلب من لايَوَدهُ
بلى قد تُرِيد النفسُ مَنْ لايريدها

فضحكتُ وضحك إمام . . . ثم قلت له : وأين نُزُلُكَ يا إمام ؟ قال : فى مكان قَصِىّ حيث يَنْزِلُ أشعب وجُحا والْجَمَّاز والغَاضِرى وأبو دلامة وأبو الشَّمَقْمَق والشيخ على الليثى وكثير من أعيان المُجَّان فى الإسلام . وكلما تاقت نفسى إلى رُؤيةِ مُعَاصِرِىٍّ فى الدُّنيا من أهل مصر جئت إلى حيث هؤلاء الأئمة الأعلام ؛ ولعلك زائرِى بعد هذه الزَّوْرَه ، حيث تُلاقِى كُلّ مَسَرّه .

حدّث الأديب الثقة قال :

وَإنى لَفِى حِوَارٍ مَعَ إمام إذْ أقْبَلَ علَىَّ الإخْوانُ جَمِيعًا يَسْتَنْبِئُونَنى عَنْ حَالِ مِصرَ ، ويَسْتَطْلِعُون طِلْعها كُلٌّ مِن الجانِب الّذِى كان يَعْنِيه فِى العَاجِلةِ : أما الشيخ محمد عبده فكان تَسْآلهُ عَنِ الدّينِ وَمَا أَلَمَّ بِهِ ، والأزهرِ وما نَزَلَ بِسَاحَتِهِ ؛

وكانَ سُؤَالُ الشيخ حسن الطويلِ عنِ العِلْمِ والفَلسفةِ ؛ وقاسم أمين ومَلَك ناصف فكان سُؤالهُما عَنِ المَرأة المِصْرِيَّة ؛ وفتحى زغلول عن الحالة الأخْلاقِيَّةِ والاجْتماعية ؛ ومصطفى كامل ومحمد فريد فكانا سَؤُولَيْنِ عن الْحَالةِ السِّيَاسِيةِ ؛ وكان سُؤَال البارُودِى وإسماعِيل صَبرى عن الشِّعْرِ ؛ والمُوَيلحِي وحِفنى ناصف عن الْكِتَابَةِ والأدَبِ ؛ وحمزة فتح الله عن اللغة ؛ وحسن جلال عن القضاء ؛ وعبده الحامولى عن الغِنَاءِ والمُوسِيقَى ؛ والشيخ سلامه عن التمثيل . . . فَوَقَعْتُ فِى حَيْصَ بَيْصَ[1] ؛ وحَاوَلْتُ التَّمَلُّصَ والإنفِلات ، والإقالَةَ من هذه العثرات . . . قلت : وما تَسْآلُكُمْ عن أشْيَاءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم ، ولقد أراحكم الله من الخاسرة وأباطيلها ، وأُمِّ دَفْرٍ

---

(١) يقال : وقع القوم فى حيص بيص : أى فى اختلاط من أمر لا مخرج لهم منه ؛ قال الجوهرى : وحيص بيص : اسمان جعلا واحدا وبنيا على الفتح ، مثل جارى بيت بيت ؛ وقيل إنهما اسمان من حيص وبوص جعلا واحداً ، وأخرج البوص على لفظ الحيص ليزدوجا ، والحيص الرواغ والتخلف ، والبوص : السبق والفرار ؛ ومعناه : كل أمر يتخلف عنه ويفر

وأفاعيلها [1] ، وأصاركم إلى ما أنتم فيه ، من نضرة النعيم والترفيه ! على أن أكثر ماسألتمونى عنه لست من ليله ولا سمره [2] : فلقد كنت فى العاجلة أمقت السياسة كل المقت وأجتوى الاشتغال بها وبأهلها ، وكنت أراها ضرباً من التبطل واللهو [3] وعمل من لا عمل له ... ولقد كان الجدل - وبخاصة فى السياسة والدين - من أبغض الأشياء إلى وأبعدها فى رأيى عن اليقين :

لذوى الجدال إذا غدوا لجدالهم
حجج تضل عن الهدى وتجور
وهن كآنية الزجاج تصادمت
فهوت وكل كاسر مكسور

---

(١) أم دفر : هى الدنيا ، وأصل الدفر : النتن خاصة ، ويقال دفراً دافراً لما يجىء به فلان : على المبالغة ؛ أى نتناً ، ويقال للرجل إذا قبحت أمره : دفراً دفراً أى نتناً

(٢) لست منه فى شىء ولا أميل إليه

(٣) التبطل : فعل البطالة ، وهو اتباع اللهو والجهالة

وكنت فى الحياة الدنيا ، لا أدريًّا [١] ؛ وكنت أرى أن كل شىء ثَمَّةَ فيه عُنْصُرٌ مِنَ الْحَقِّ وعُنْصُرٌ مِنَ الْبَاطِلِ، وجَانِبٌ مِنَ الْخَيْرِ وَجَانِبٌ مِنَ الشَّرِّ ، ومَسْحَةٌ مِنَ جَمَالِ الصدق وشِيَّةٌ من قبح الكذب [٢] ، ورأيت العَالَمَ شَرِقاً

---

(١) اللاأدريون : فرقة من الفلاسفة يتوقفون فى الحكم على الأشياء ويكثرون من قول «لاأدرى» ، وهم تابعون فى فلسفتهم للفيلسوف اليونانى « بيرون » المولود فى «أليس» من يونان سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ؛ وأساس فلسفته هو : أن الإنسان متى خرج من ظلمة العدم إلى نور الوجود وأراد أن يسبر غور خفايا الأشياء المحيطة به من كل جانب فإنه لايخلو حاله من أحد أمرين : فإما أن يصدق كل مايراه ويستنتجه ويعده حقائق غير قابلة للنقض ، وإما أن ينكر كل ذلك ويدعى أن ليس هناك شىء ؛ ولا يخفى أن كلا هذين الأمرين يخرج بنا عن طبيعة الإنسان ويباين فطرته الأصلية . إذن فليس للإنسان إلا خطة الاعتدال ، التى من مقتضاها الإحجام عن الحكم على الأشياء ، راجع فلسفته فى دوائر المعارف والرد عليه فى كتب العقائد الإسلامية المطولة .

(٢) يقال : عليه مسحة من جمال ومسحة عتق وكرم : أى شىء منه ، ولايقال ذلك إلا فى المدح ، فلا يقال : عليه مسحة قبح ، وقال ذو الرمة :

على وجه مىّ مسحة من ملاحة
وتحت الثياب الخزى لوكان باديا =

بالشرور جَيَّاشًا بالآثام[1] مُنذْ هَبَطَ أبونا آدمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَقَتَلَ قابِيلُ هَابِيلَ ، إلى هٰذَا الحين ، وَلَمْ تَصْلُحْ على مَرِّ الزَّمان حَالُه ، وَرُبَّمَا زَاد فسادا وَجُنّ ضَلَالُه ، وَلَمْ يُفْلِح فيه إرْشَادُ الأنْبِياء ولا حِكْمَةُ الحكماء وَلا وَعْظُ الواعظين ولا نُصْحُ الناصحين :

كَمْ وَعَظَ الْوَاعِظُونَ مِنَّا
وَقامَ فى الأرْضِ أنْبِيَاء
فانْصَرَفُوا وَالْبَلاءُ باقٍ
ولَمْ يَزُلْ دَاؤُنَا الْعَيَاءُ[2]
حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِيكِ فِينَا
ونَحْنُ فى الأصل أغبياء

= والشية: من الوشى، يقال وشى الكذب والحديث: صوّره ، ووشى كلامه: كذب ، ثم استعملت الشية فى كل لون يخالف معظم اللون ، قال تعالى : (لاشية فيها) أى ليس فيها لون يخالف سائر لونها

(١) يقال شرق الموضع بأهله : امتلأ فضاق

(٢) يزل : - يزول - مضارع زال من الزوال ، والداء العياء : الداء الذى لادواء له

* * *

إذا كانَ عِلْمُ النَّاسِ لَيْسَ بِنَافِعٍ
ولا دَافِعٍ فالْخُسْرُ لِلْعُلَمَاءِ
قَضَى اللهُ فِينَا بالَّذِي هُوَ كائِنٌ
فَتَمَّ وَضَاعَتْ حِكْمَةُ الْحُكَمَاءِ

ومن جَرَّاءِ ذٰلِكَ كُلِّهِ كانَتْ خُطَّتِي فِي العاجِلَةِ إنما هو غُدُوٌّ لمَعَاد، أو إصْلَاحٌ لمعاش، أو فِكْرٌ أقِفُ به على مَا يُصْلِحُنِي مِمَّا يُفْسِدُنِي، أوْ لَذَّةٌ أسْتَعِينُ بِهَا على الحالات الثلاث ؛ وكُنْتُ أشْبَهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ ابْنُ المُعْتَزِّ نَفْسَهُ إذ يقول :

قليلُ هُمُومِ الْقَلب إلّا لِلَذّةٍ
يُنَعِّمُ نَفْسًا آذَنَتْ بالتَّنَقُّلِ
فإنْ تَطَّلِبْهُ تَقْتَنِصْهُ بِحَانَةٍ
وإلّا بِبُسْتَانٍ وكَرْمٍ مُظَلَّلِ
ولَسْتَ تَرَاهُ سَائِلاً عَنْ خَلِيفَةٍ
ولَا قائِلاً : مَنْ يَعْزِلُونَ وَمَنْ يَلِي

وَلا صَائِحًا كَالْعَيْرِ [١] فى يَوْم لَذَّةٍ

يُنَاظِرُ فى تَفْضِيلِ عثمانَ أوْ على

وَلٰكِنَّهُ فِيما عَناهُ وَسَرَّهُ

وعَنْ غَيْرِ ما يَعْنِيهِ فَهْوَ بمعْزِل

ثم قلتُ: وَلٰكِنى سَائِلُكُمْ بادئَ ذِى بَدْءٍ [٢] عَنْ هذا الْوِئام، الذى أرَى بَين مصطفى كامل والأستاذ الإمام، بَعْدَ أَنْ يَبِسَ الثَّرَى بَيْنَهُمَا فى دَار الْمِحْنَه [٣]، قال الأستاذ الإمام: أَلا تَعْلم أَنَّهُ مَتَى يَدْخُلْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَمْسَحِ اللهُ مابِهِمْ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعض، فَلَا يَبْقَى فى صَدْرِ أَحد حَسِيكَةٌ على أَحد ولا ضِغْنٌ ولا إحَن [٤]، ويَعُود مابينهم

---

(١) الحمار

(٢) أى قبل كل شىء

(٣) يبس الثرى بينك وبين فلان: إذا تقاطعتما، قال جرير:

فلا توبسوا بينى وبينكم الثرى

فإن الذى بينى وبينكم مثرى

ومن ذا قولهم: مابينى وبين فلان مثر: أى أنه لم ينقطع

(٤) يقال فى الدعاء للمريض: مسح الله عنك مابك: أى أذهبه، والحسيكة: الضغن والحقد؛ والإحن: جمع إحنة، وهى الضغينة والعداوة.

مُشْرِقا ، مُثْرِيًا مُونِقًا ، وَهل نَسِيتَ قول الله جل شأنه يصف أَهلَ الْجَنَّةِ : (ونَزَعْنا ما فى صُدُورِهم مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ، لا يَمَسُّهُم فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) ؟ قلتُ ـ وَالشَّىْء يذكر بالشىء ـ وَلِمَاذا مُنِىَ العالَمُ فِى العاجِلَةِ بالخلاف والشقاق ؛ وَعلامَ كُلُّ هاتِيكم الأَحْقَاد وَالحزازَات ، والشُّرور والإساءات ، والمصائِب والآفات . قال الأستاذ : (ولو شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلك خَلَقَهُمْ ، وتَمّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ) قل عبده الحامولى : ولم لا يكون الاختلاف فى الحياةِ الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يُقصد به إلى معْنى نبيل حُلو جميل ، مامنه بُدٌّ ! ألسنا قد أُنشِئْنَا كأَنغام الموسيقَى ، هِىَ وإن اختلفت غير أَن مجموعها يؤلف من هذا الاختلاف نَغَمًا مُوسِيقِيًّا منسجما بديعًا يطرب السَّمْعَ ويملِكُ على المرْء مشاعره ، وقال الشيخ حسن الطويل : هَذَا الخلاف يَرْجِعُ إلى الْحِكْمَةِ البَالِغَةِ فِى إِيجَادِ الْخَيْرِ وَالشَّرّ . قال أحمد فتحى زغلول : ويَرْجِعُ إلى طَبِيعَةِ الْبَشَر . قال محمود سامى البارودى : تلكَ الطَّبِيعَةُ التى خَلَقَهَا الله مِنْ

صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون [١] ، ولله عَلِيُّ بنُ العباس إذ يقول :

اعْلَمْ بأَنّ الناسَ مِنْ طِينَةٍ
يَصْدُقُ فِي الثَّلْبِ لَهَا الثَّالِبُ [٢]

لَوْلَا عِلَاجُ الناسِ أَخْلَاقَهُم
إِذَنْ لفاح الحَمَأ اللَّازِبُ [٣]

وقال إبراهيم المويلحى : أَمّا مَرْجِعُ كلِّ المصائب والآلام التى يُعانيها العالَمُ فى الدُنيا فَهُوَ تِلْكَ الفَعْلَةُ البَارِحَةُ [٤] التى فعَلَ أبونا آدم فى الجنة بعد أن خَدَعَهُ إبليس خُدْعَةَ الصَبِيِّ عَن اللبن . وهنا قال إمام العبد وهو يضحك كما كان فى الدنيا : كُلُّهُ من أَكْلَة التِّين [٥] !!

---

(١) الصلصال : الطين اليابس ، والحمأ : الطين الأسود ، والمسنون : المتغير المنتن

(٢) ثلبه ثلبا : عابه وتنقصه

(٣) الحمأ : الطين الأسود ، وطين لازب : يلزق باليد لاشتداده

(٤) البارحة : الشديدة المؤذية

(٥) قيل إن الشجرة التى نهى آدم عن أن يقربها هى شجرة التين ، وقيل الحنطة ، وقيل الكرمة

فَيَالَكِ أَكْلَةً ما زَالَ منها

علينا نِقْمَةٌ وَعَلَيهِ عَارُ *

---

* من كلمة حكيمة للحكيم الفيلسوف الأديب ابن الشبل البغـــدادى المتوفى ببغداد سنة ٤٧٤ هجرية ، وإليك هذه الكلمة الجيدة البارعة برمتها :

بِرَبِّكَ أيُّها الفَلَكُ المُدَارُ أَقَصْدُ ذا المَسِيرُ أم اضْطِرارُ؟

مَدَارُكَ قُلْ لَنَا فى أىّ شىء ففى أفْهامِنا منك انْبِهار

«انبهار : تحير »

وفيك نَرَى الفَضَاءَ وهلْ فَضَاءٌ سِوَى هذا الفَضاءِ به تُدَارُ؟

وَعِندكَ تُرْفَعُ الأرْوَاحُ أمْ هل مع الأجْسادِ يُدْرِكها البَوَارُ

« البوار : الهلاك »

وَمَوْجٌ ذى المَجَرَّةُ أمْ فِرِنْدٌ على لُجَجِ الدُّرُوعِ له أُوارُ

« المجرة : هى ما يرى كأنه بياض معترض فى السماء ، والفرند : يقال للسيف ولمائه الذى يجرى فيه وطرائقه ، والأوار : وهج النار وشدة حر الشمس »

وَفيكَ الشَّمْسُ رَافِعَةً شُعاعًا بأَجْنِحَةٍ قَوادِمُها قِصَارُ

« القوادم : أربع ريشات فى مقدم الجناح »

وطَوْقٌ فى النُجوم من اللَّيالى هِلَالُكَ أم يَدٌ فيها سِوَارُ =

واستمرّ المويلحى فى حديثه قال : فكأنّ ما يكابِدُه الناسُ

= «الطوق : حلى يجعل فى العنق وكل شىء استدار، والسوار - بكسر السين وضمها - جمع أسورة ، وهو ما تتحلى به المرأة فى يدها من ذهب وفضة»

وشُهْبٌ ذِى الخَوَاطِفُ أم ذُبالٌ عليها المَرْخُ يُقْدَحُ والعَفارُ

«الشهب : النجوم السبعة المعروفة بالدراري والتى تنقضّ بالليل ، جمع شهاب ؛ وفى الأصل الشعلة من النار ، والخواطف : جمع خاطف ، والخطف : استلاب الشىء وأخذه بسرعة ؛ وسميت خواطف من خطف البرق البصر: ذهب به ، أو لأنها تخطف الشياطين الذين كانو يسترقون السمع ، والذبال: جمع ذبالة ، وهى الفتيلة التى يصبح بها السراج ، والمرخ : شجر كثير الورى سريعه ، ومنه يكون الزناد الذى يقتدح به ، وكذلك العفار »

وتَرْصِيعٌ نُجومُكَ أَمْ حَبَابٌ تُؤَلِّفُ بينه اللُّجَجُ الْغِزَارُ

« الترصيع : التركيب ؛ يقال تاج مرصع بالجواهر ، ورصع العقد بالجوهر : نظمه فيه وضم بعضه إلى بعض ، وحباب الماء : نفاخاته وفقاقيعه التى تطفو فوقه ، أو الطرائق التى فى الماء كأنها الوشى»

تُمَدُّ رُقُومُهَا لَيْلًا وتُطْوَى نَهَاراً مِثْلَ مَا طُوِىَ الإزَارُ

«الرقم فى الأصل : الوشى والنقش ، والضمير فى «رقومها» للنجوم»

تبَارَى ثمّ تَخْنُسُ راجعاتٍ وتَكْنِسُ مِثْلَ ما كَنَسَ الصُّوَارُ

«تبارى - بحذف إحدى التاءين - أى تتبارى، والمباراة: المجاراة والمسابقة ؛ والصوار - بضم الصاد وكسرها : القطيع من البقرة ، وتخنس : تغيب =

فى دار الهموم والأحزان تكفيرٌ لتلكَ الفعْلةِ ، وكأنّ الدنيا

= وتختفى، وكنست البقرة : دخلت فى كناسها إذا اشتد الحر» قال تعالى: فلا أقسم بالخنس؛ الجوار الكنس» قال الإمام الزمخشرى: الخنس: الرواجع بيناترى النجم فى آخر البرج إذ كر راجعا إلى أوله ، والجوارى: السيارة ، والكنس: الغيب ، قيل هى الدرارى الخمسة : بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشترى . تجرى مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس ، فخنوسها رجوعها؛ وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس؛ وقيل هى جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل - أى تطلع فى أماكنها كالوحش من كنسها »

فَبَيْنَا الشَّرْقُ يَقْدُمُهَا صُعُودًا تَلَقَّاهَا مِنَ الْغَرْبِ انْحِدَارُ

«الشرق هنا : الشمس ، ويقدمها : يتقدمها ؛ أو تقول: الشرق: المشرق ، ويقدمها : يقدّمها »

على ذا مَامَضَى وَعَلَيْهِ يَمْضِى طَوَالُ مُنًى وآجالٌ قِصَارُ

وَأيامٌ تُعَرِّقُنَا مُدَاها لَهَا أَنْفَاسُنَا أَبَدًا شِفَارُ

«المدى : جمع مدية ، الشفرة الكبيرة ، وعرقه وتعرقه : أخذت اللحم عنه ، والشفار : جمع شفرة ، السكين أيضاً وحدّ السيف»

وَدَهْرٌ يَنْثُرُ الأَعْمَارَ نَثْرًا كَمَا لِلْغُصْنِ بِالْوَرْدِ انْتِثَارُ

وَدُنْيَا كُلَّمَا وَضَعَتْ جَنِينًا غَذَاه مِنْ نَوَائِبِهَا ظُؤَارُ

« الظؤار : جمع ظئر ، وهى المرضع »

هِىَ العَشْوَاءُ مَاخَبَطَتْ هَشِيمٌ هِىَ العَجْمَاءُ مَاجَرَحَتْ جُبَارُ =

لذلك بِيمارِسْتَانُ مُجْرمين[1] . . . قال الأستاذ الإمام : وما ذا

(١) البيمارستان : المستشفى

= « العشواء : الناقة لاتبصر ماأمامها ، ومنه : هويخبط خبط العشواء ؛ وخبطت : وطئت ، وهشيم : مهشوم ، والعجماء : البهيمة ، وجبار : هدر ، يقال : ذهب دمه جباراً : أى لم يؤخذ بثأره »

فَمِنْ يَومٍ بلَا أمْسٍ لِيَوم ... بِغَيْرِ غَدٍ إلَيْهِ بِنَا يُسَارُ

وَمِنْ نَفَسَيْنِ فى أخْذٍ وَرَدٍّ ... لِرُوحِ المَرْءِ فِى الْجِسْمِ انْتِشَارُ

وكَمْ مِنْ بَعْدِ ما أُلِفَتْ نُفُوس ... جُسُوماً عَن مَجَاثِمِهَا تُطَارُ

« مجاثمها : أماكن جثومها »

أَلَمْ تَكُ بالْجَوَارِحِ آنِسَاتٍ ... فَكَمْ بالْقُرْبِ عادَ لَهَا نِفَارُ

فإنْ يَكُ آدَمٌ أشْقَى بِذَنْبٍ ... مالَهُ مِنْهُ اعْتِذَارُ

ولَمْ يَنْفَعْه بالأسْمَاءِ عِلْمٌ ... وما نَفَعَ السُّجُودُ ولا الحِوَارُ

« يشير بقوله ولم ينفعه بالأسماء علم الخ إلى قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم) . . . إلى آخر الآيات

فَأُخْرِجَ ثُمَّ أُهْبِطَ ثُمَّ أُوْدَى ... فَتُرْبُ السافياتِ له شِعَارُ

« أودى : مات ؛ والسافيات : الريح تسفى التراب ؛ أى تذروه »

فَأدْرَكَهُ بِعِلْمِ اللهِ فِيهِ ... مِنَ الكَلِمَاتِ لِلذَّنْبِ اغْتِفَارُ =

كانت تَكُونُ الحياةُ لو أنّ كلّ شيءٍ فيها كان طَيِّبًا وكانت

= ولٰكن بَعْدَ عُفْرَانٍ وعَفْوٍ يُعَيِّرُ ما تلا لَيلًا نَهَارُ

لَقد بَلَغَ العَدُوُّ بنا مُنَاهُ وحَلّ بِآدَمٍ وَبِنَا الصَّغَارُ

« الصغار : الهوان »

وتِهْنَا ضَائِعِينَ كَقَوْمِ مُوسى ولا عِجْلٌ أَضَلّ ولاخُوَارُ

« الخوار : صوت البقر »

فيالك أكلة .. .. « البيت »

نُعاقَبُ فى الظهور وما ولدنا ويُذْبَحُ فى حَشَا الأم الْجِوَارُ

« الجوار : ولد الناقة قبل أن يفصل عنها »

ونَنتَظِر الرّزايا وَالبلايا وَبَعْدُ فبالوعيد لنَا انتظارُ

ونَخْرُجُ كارِهِينَ كما دَخَلْنَا خُرُوجَ الضَّبِّ أَحْوَجَه الْوِجَارُ

« الوجار : الجحر »

فَماذا الِامْتِنَان علَى وُجُودٍ لِغَيرِ الْمُوجِدِينَ به الخِيَار

وكانت أنْعُمًا لو أنّ كَوْنًا نُخَيَّرُ قَبله أو نُستَشَار

أهذا الداءُ ليس له دَوَاءٌ وَهذا الكَسر ليس له انجِبَارُ

تَحَيَّرَ فيه كلُّ دَقِيقِ فَهْمٍ وَليس لِعُمْقِ جَرْحِهِمِ انْسِبَارُ

« سبر الجرح : نظر مقداره وقاسه ليعرف غوره »

إذا التكوير غال الشَّمْس عَنَّا وَغال كواكبَ الليل انْتِشَارُ

« كورت الشمس : غورت أو اضمحلت وذهبت ، أو جمع ضوؤها ولف كما تلف العمامة ؛ وغاله الشيء : أهلكه »

=

خالِصَةً لا يَشُوبُها شَوْبٌ مِنَ الأكْدارِ ! إنَّها تكونُ فى هٰذه

= وبُدِّلْنا بِهٰذِى الأرْضِ أرْضًا وطَوَّحَ بالسمواتِ انْفِطَارُ

« أصل الفطر : الشق ، قال تعالى : (اذا السماء انفطرت) أى : انشقت ؛ وقال الشاعر :

شَقَقْتِ القَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتِ فيهِ هَوَاكِ فَلِيمَ فالْتَامَ الْفُطُورَ

« وطوح به : ذهب به ههنا وههنا ، يريد بهذا وبما بعده : يوم البعث »

وأُذْهِلت المَرَاضِعُ عَنْ بنيها لِخَيْرَتِها وعُطِّلت العِشَارُ

« العشار من الإبل : التى قد أتى على حملها عشرة أشهر ؛ قال تعالى : (وإذا العشار عطلت) قال الفراء : لقح الإبل : عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم ولا يعطلها أهلها إلا فى حال القيامة »

وغَشّى البدرَ مِنْ فَرَق وذُعْر خسوفٌ لِلتَّوَعُّد لا سِرَارُ

« السرار : الليلة التى يستسر فيها القمر : أى يختفى »

وسُيِّرَتِ الْجبالُ فَكُنَّ كُثْبًا مَهِيلاتٍ وسُجِّرَتِ البِحارُ

« سيرت : أى على وجه الأرض ، والكثب : جمع كثيب ، قال تعالى (وكانت الجبال كثيباً مهيلا) الكثيب : الرمل ، والمهيل : المنثور بعضه فوق بعض ، وسجرت قيل فجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً ؛ وقيل ملئت نيرانا تضطرم لتعذيب أهل النار ، وقيل ذهب ماؤها حتى لا يبقى فيها قطرة »

فَأيْنَ ثَباتُ ذِى الألبابِ مِنا وأيْنَ مع الرُّجُومِ لنا اصطبارُ

الحَالَةِ أَشْبَهَ بِحَلْبَةِ السِباقِ والمُتَسَابِقُون واحِد لَيْسَ معه مَنْ يُسَابِقُه ، وإنها لَحِكْمَةٌ بالِغَةٌ تِلك الشَـدائِدُ والأَهْوالُ التى يُلاقيها الناسُ فى الخاسِرَه ؛ إذْ لَوْلَاهَا لَمَا كانَ لِلْحياةِ مَعْنَى ؛ وكما أنَّهُ لَوْلَا ضَغْطُ الهَوَاءِ على جِسْمِ الإنسانِ لَانْصَدَعَ وتَمَزَّق ؛ كذلك الحالُ لَوْ يَعْرَى الناسُ مِنَ الشدائِدِ ، ويُصْبِحُون مُوَفَّقِينَ فى كلِّ مَا يُعَالِجُون ، لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إلى الخُرْقِ

.....

وأَيْنَ عُقولُ ذى الأَفْهامِ مِمَّا ... يُرَادُ بِنا وأَيْنَ الِاعْتِبارُ
وأَيْنَ يَغِيبُ لُبٌّ كان فِينا ... ضِياؤُكَ مِن سَناهُ مُستَعارُ
وما أَرْضٌ عَصَتْه ولا سَمَاءٌ ... فَفِيمَ يَقُولُ أَنْجُمُهَا انكدارُ
وقد وافَتْه طائِعَةً وكانَتْ ... دُخَاناً ما لِقَائِرِهِ شَرَارُ

« يشير إلى قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها والأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين .. الآية »

قَضَاها سَبعَةً والأَرْضَ مَهْدًا ... دَحاهَا فَهْىَ للأَمْواتِ دَارُ

« دحاها : بسطها أو أوسعها »

فَمَا لِسُمُوٍّ ما أَعْلا انتهاءٌ ... ولا لِسُمُوكِ ما أَرْسَى قَرَارُ

« سمك الشىء : رفعه »

ولكن كُلُّ ذا التَّهْوِيل فيهِ ... لِذِى الألباب وَعْظٌ وازْدِجارُ

والطَّيْشِ والحَماقة ، وقد يَعْرُوهُمُ الخَبالُ والجُنون ؛ وحالُهُمْ في ذلك تُشْبِهُ سَفِينةً تَسيرُ في خِضَمِّ عَجّاج ، مُعْتَلِمِ الأمْواج ، دُونَ أن يكون بها صابُورَةٌ (١) ، أو ما يُغْنِي غَنَاءها ؛ لاغَرْوَ أن يُجَنَّ جُنُونُها خِفَّةٌ وطَيْشا . . . قال حفنى ناصف : وبِضِدِّها تتَمَيَّزُ الأشياء ؛ فلَوْلَمْ يكُنْ ثَمَّةَ أَلَمٌ وتَرَح ، لَمَا طَعِمَ بَنُو الدنيا اللَّذَاذَةَ والفرح :

والحَادِثَاتُ وإنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا

فَهوَ الذى أَنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمُها

عَلَى أنّ للأَحْزانِ أَثَرًا صَالِحًا مُحَسًّا فى صَقْلِ النفُوسِ وجَلاءِ صَدَائِها ، وإشْباعِ العقول ورُجْحانها ، وتهذيبِ الأخلاقِ واتِّزانها ؛ مَثَلُها فى ذلك مَثَلُ بُوتَقَةِ الصَائِغِ وكِيرِه ، يُبْقِيان على الذَهَبِ المَحْض ، ويَنْفِيان الخَبَثَ والرَنْق (٢) ، وألَمْ تَرَ إلى الفَحْمِ مَتَى

---

(١) الصابورة : مايوضع فى باطن المركب من الثقل ليثقل ولايميل إلى جانبيه

(٢) البوتقة ، الوعاء الذى يذيب الصائغ فيه المعدن ، والكير : الزق الذى ينفخ فيه ، والخبث من الذهب والحديد ونحوهما : ما نفاه الكير من غش وزيف وما لاخير فيه ؛ والرنق : مثله

ضُغط صارَ مَاسَا ، وإلى الصُّفْرِ المَجْهُود كَيف يَؤُولُ ذَهَبًا زُلَالًا بعد إذ كان نُحاسا[1] :

لقَــدْ هَذَّبَتْكَ الحادِثَاتُ وربَّمـا
صَفَا الذَهَبُ الإبْرِيزُ قَبلَكَ بالسَبْكِ

على أنّ ثمّةَ من الفضائل مالا يُثِيرُ دَفائِنَه ، ويظهر مُضْمَرَه ، ويَنْثرُ كنائِنَه ، سِوى النَوازِلِ والآلام ؛ كالنار يُورِيها القَدْح ، والطِيبِ يُذيعُه السَحْق ؛ ومن هنا كانت هذه الآية العبقريةُ الحكيمةُ الخالدةُ : إنّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحين ؛ ومِثلُها تَوْأَمَتُها كلمة السيد المسيح : طُوبَى لِلْمَحْزونين .

حدّث الأديب الثقة قال :

وهنا أَمكنتنى الفرصة ، فما كَذَّبْتُ أَنِ اهْتَبَلْتُها[2] ، فقلت : أَمَّا والأمْرُ كما تقولون ، والشَرُّ والخِصامُ لا مَنْدُوحَة عنهما فى الخاسِره ، والخَيْرُ والسَلام لايكونان إلا فى الآخره .

---

(١) الصفر : النحاس الجيد ، والزلال : الخالص

(٢) اهتبلتها : اغتنمتها

فقد تركتُ الخلافَ السياسى بين المصريين[١] وقد بلغ أشُدَّه ، وجاوَزَ حدّه ، فقد تفرَّقَتْ كلمةُ القوم بعد أنْ نَزَغَ الشيطانُ بَيْنَهُم[٢] ، وتمشَّتْ فيهم حُمَيَّا الضغائن والإحَن[٣] ، وذهب الخُلْفُ بينهم كلَّ مذهب ، حتى كادَتْ رِيحُهم تَذْهب[٤] ، فتهانَفَ بهمُ الغاصِب[٥] ، واتَّخذَهم سُخْرِيًا ، وفَغَرَ فاه طامِعَةً فيهم ، ونَشَرَ أُذُنَيْهِ بعد أنْ ضَرَبَ على أيديهم[٦] ، والقوْمُ مَاضُون على غُلَوَائهم[٧] ، مُتَدَفِّقُون فى طُغْيانهم ، وأنت تعلمُ أنَّ الإحَن[٨] ، تَجُرُّ المِحَن ؛ ومِنْ ثَمَّ وقَعَ البلَد ، فى كَبَد[٩] ؛ ودِيسَ بِلَمَانُه

---

(١) يلاحظ أن هذا وصف لما كانت عليه الحال سنة ١٩٢٥م أى عقب حادثة السردار « المأسوف عليه سيرلى ستاك » المشئومة

(٢) نزغ الشيطان بينهم : أفسد بينهم بالحث على الشر

(٣) حميا كل شىء : شدته

(٤) ذهبت ريحهم : ذهبت دولتهم

(٥) التهانف : الضحك بسخرية

(٦) جاء فلان ناشرا أذنيه : طامعا

(٧) غلوائهم : من غلواء الشباب ، شرته وسرعته

(٨) الإحن : الضغائن

(٩) كبد : شدة

وسُلِخَ منه سُودانه ، وعُطِّلَت المَرَافق ، واعْوجَّت الخلائق ، والْتَاثَ[١] على القومِ الأمْر : وانتَشَر الرَّأى وابْذَعَر ، وبقِيت الأمَّةُ فى داهِيَةٍ إدّه[٢] ، ولَقِيتْ من هذا الأمرِ كلَّ شِدّه ؛ وَبِالْحَرَى التْوتِ الحَالُ وتَصعَّبَت ، بعْدَ أنْ لانَتْ وتسهَّلَتْ ؛ وبعْدأن ذُلِّلَتْ غُصونُها ، وتدانَتْ قُطوفها ، ولمَّا وكأنْ قد[٣] ... بفضل تلك الثورةِ المباركةِ والاتِّحادِ المُقدّس ، الّذى تَمّ بين رِجالاتِ مِصْرَ[٤] ... أولئك الزعماء الذين حَفَّتْ بهم ملائِكةُ الخيْر ، وطُرِدَتْ من ساحاتِ صُدورِهم شَياطِينُ الشرّ ، واصْطَلِمَتْ من أحْشائهم جَرَاثيمُ الشِقاق[٥] ، فأَصْبَحَتْ سُوحُهم فَرَاديسَ تَغَصُّ بالملائكةِ ، لا يَصْدُرُ عنها إلا كلُّ مَا هُوَ خَير ، وكلُّ ما هو جميل :

---

(١) التاث : اختلط والتبس

(٢) إدة : فظيعة

(٣) ولما : أى ولم تقطف بعد ؛ وكأن قد : وكأنها قد قطفت

(٤) يشير إلى الثورة المصرية سنتى ١٩١٨ - ١٩١٩ ، وإلى الاتحاد الذى كان فى سنة ١٩٢٧ بين المغفور لهم : سعد زغلول ، وحسين رشدى ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت

(٥) اصطلمت : استؤصلت

صَوتُ الشُعُوبِ مِنَ الزَئِيرِ مجَمَّعًا

فإذا تَفَرَّقَ كانَ صَوْتَ نُباحِ

ولَمَّا انتهيتُ إلى هذا الموضع ، قال مصطفى كامل : هَلَّا فَصَّلْتَ مَا أَجْمَلْتَ ! فما كان مِنِّى إلَّا أن فصَّلتُ وأكملت ، وشرحت أطوارَ المسألةِ المصريةِ ، وموْقِفَ المِصريِّين حِيالَها فى ثمانى سنوات تبْتَدئ من سنة ١٩١٩ وتنتهى سنة ١٩٢٧ لميلاد السيد المسيح صلوات الله عليه ؛ فدُهِشَ الجماعَةُ أيَّما دَهَش ، وأَطْرَقُوا أسفا وا كْتِئابا يُشبِهُ اكْتِئابَ أهْلِ الدُنْيا ولَيْسَ به ؛ والْوَصْفُ يَقْصُرُ عنه :

لَحَاهَا اللهُ أَنْباءً تَوالَت

على سَمْعِ الْوَلِيِّ بِمَا يَشُقُّ

تَكادُ لِرَوْعةِ الأَحْداثِ فيها

تُخالُ من الخُرافَةِ وهْىَ صِدْقُ

وألَا دَرَيْتَ أنّ مَنِ اسْتَأْثَرَ الله بهم ، وانتقلوا إلى جِوار ربِّهِم ، يُسَرُّون ويُساؤون بكلِّ مَا يَعْمَلُ أَهْلُ الدنيا مِمَّنْ يَمُتُّ إليهم بِسَبَبٍ واصِل ؟ فإذا كان لَكَ صديق ، أوْ شَقيق ؛

أو أبٌ شَفيق ؛ أوْ أمٌّ رَؤُوم ، أوِ ابْنٌ بارّ ، أومُوَاطِنٌ تَثْنيه عليك عاطِفَةُ الجِوَار ، ثم سَبَقوك إلى الباقيه ، وأنت لاتزالُ تَرْتَعُ فى الفانيه ؛ فَلْتَعْلَمَن أنّ سيرتَك تُؤَثِّر فيهم ؛ وسُلُوكَك يرُدُّ عَلَيهم : إنْ خَيْرًا فخَيْر ، وَإنْ شَرًّا فَشَرّ ؛ فلا تُخزوا أيُّها الناسُ مَوْتاكم ؛ بِقُبْحِ مَايأْتِيهِم مِنْ مَأْتاكم ...

قال الأديب : وبعْدَ أنْ سَكَتَ الجماعةُ شَيْئا ؛ سُكُوتَ سُخْطٍ ، لاسُكوتَ رِضاً . قال الشيخ محمد عبده : أعُوذُ بالله من السياسه ، ومن لَفْظِ السياسه ، ومن مَعْنى السياسه ، ومن كل حرف يُلْفَظُ مِنْ كلمةِ السياسه ، ومن كلّ خَيَالٍ يَخْطُرُ ببَالِي من السياسه ، ومن كل أرْضٍ تُذْكَرُ فيها السياسه ، ومن كل شَخْص يَتَكَلَّمُ أو يَتَعَلَّمُ أو يُجَنُّ أو يَعْقِلُ فى السياسه ، ومِن سَاسَ ويَسُوس ، وسَائِس ومَسُوس .

مصطفى كامل : وَأعُوذُ بالله من الرآسه ، وَحُبِّ الرآسه ؛ فهى أصْلُ البَلاء ، فى عالَمِ الفَناء :

بَلاءُ النّاسِ مُذْ كانُوا إلى أنْ تَنْهَضَ السَاعَه
طِلَابُ الأمْرِ والنّهى وَحُبُّ السَمْعِ والطَاعَه

محمد فريد : نعم ، وكلُّ ما تَلقاه الشُعوب ، من الآلاقِّ [١] والكُروب ؛ فمأتاته [٢] ذوو الرآسة والسُلطان ومن لَفَّ لِفَّهم [٣] ؛ وبخاصَّة في الشَرْق وبالأخَصِّ في مِصْر ؛ فَهُمْ - كما يُرَى - يَغمِطونَ الشُعوب [٤] ، ويَسْتَهْزِئونَ بها ، ولا يَقْدِرونها حقَّ قدْرِها ؛ برغم أنهم لَيْسوا إلا خُدّامَها ، أقامتْهم لإنفاذ مشيئتها ، والقَوْمَةِ على مَصالِحِها وخَفارَتِها ؛ فإذا هم قَصَّروا وانْحَرفُوا عن الجادَّة كانوا غيْرَ أهْل لما أُسْنِد إليهم ، وبالتالي اسْتَحَقُّوا الطَرْدَ والتَنْكِيلَ بهم والتَمَرُّد عليهم . على أنّ الشعوبَ قد تُمْلِي لِلظالمةِ منْ حُكّامِها ، وتُرْخِي لَهُم الطِوَلَ [٥] ؛ ولكنها إذا قالَتْ رَدَّدَتْ قالَهَا الأقْدار ؛ وإذا اسْتُغْضِبَتْ كان غَضَبُها الحديدُ والنار :

---

(١) الآلاق : الشدائد

(٢) مأتاته : المكان الذى يأتى من ناحيته ومصدره

(٣) لف لفهم : من عد فيهم وانتمى اليهم

(٤) غمطه . احتقره وازدراه

(٥) أملى الله للظالم : أمهله ، والطول : الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه ، والطول أيضا : التمادى فى الأمر والتراخى ، والمعنى ظاهر

إنْ مَلَكْتَ النُّفُوسَ فَابْغِ رِضَاهَا
فَلَهَا ثَوْرَةٌ وَفِيهَا مَضَاءُ
يَسْكُنُ الْوَحْشُ لِلْوُثُوبِ مِنَ الأَسْـ
ـرِ فَكَيْفَ الْخَلَائِقُ الْعُقَلَاءُ

* * *

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا
وَعَدَوا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أُجَرَاؤُهَا

* * *

تَخِذْتِكُم دِرْعًا وَتُرْسًا لِتَدْفَعُوا
نِبَالَ الرَّدَى عَنِّى فَكُنْتُم نِصَالَهَا

* * *

كَمُتَّقٍ لَفْحَ نَارٍ يَسْتَعِدُّ لَهُ
بِالْجَهْلِ دِرْعَيْنِ مِنْ قَارٍ وَكُبْرِيتِ

إبراهيم المويلحى : إنّ الرياسةَ فى الأعمّ الأغلب ، تُحِيلُ طِبَاعَ النّاس ؛ وَإِنَّهَا لَمُفْسِدَةٌ للأخلاق أىُّ مُفْسِدَة ؛ فبَيْنَا تَرَى الرَّجُلَ قبل الرِيَاسَةِ نَبِيلَ النَّفْس ، سَرِىّ الأخلاق ، مَحْمُودَ الشَّمَائِل ؛ عَفِيفَ الإزَار ،

خَفِيفًا مِنَ الأَوْزَار [١] ؛ مُؤْدَمًا مُبْشَرًا إِدَامَ قَوْمه [٢] — قد تَتَسَعَّر جَوَانِبُه حَمَاسَةً وَطَنِيَّه ، وتَطِيرُ برأسه نُعرَةٌ قَوْمِيَّه [٣] ؛ إِذَا بِهِ بَعْدَ أَنْ تأتيه الرَّآسَةُ وقَدِ انْقَلَبَ سُوءَ مُنْقَلَب ؛ فَنَضَا عَنْهُ ثَوْبَ التُّقَى ولَبِسَ لِقَوْمِهِ جِلْدَ النَّمِر ، وقَلَبَ لَهُمْ — كما يقولون — ظَهْرَ المِجَن [٤] ، وأَجْدَبَ قَلْبُهُ [٥] ؛

---

(١) الأوزار : جمع وزر ، الإثم والحمل الثقيل

(٢) يقال فلان مؤدم مبشر : إذا كان كاملا من الرجال ، وقال الأصمعى : هو الذى قد جمع لينا وشدة مع المعرفة بالأمور ، قال : وأصله من أدمة الجلد وبشرته ؛ فالبشرة ظاهره وهو منبت الشعر ، والأدمة باطنه وهو الذى يلى اللحم ، قال : والذى يراد منه أنه قد جمع لين الأدمة وخشونة البشرة وجرب الأمور ، وفى المثل : إنما يعاتب الأديم ذو البشرة : أى يعاد فى الدباغ ، ومعناه : إنما يعاتب من يرجى وفيه مسكة وقوة ، ويراجع من فيه مراجع . . ويقال فلان إدام قومه وأدم بنى أبيه لثمالهم — غياثهم — وقوامهم ومن يصلح أمورهم

(٣) أصل النعرة : الذباب الأزرق يتولع بالبعير ويدخل فى أنفه فيركب رأسه ، ثم استعيرت للنخوة والأنفة والكبر ، فيقال لكل من ركب رأسه : فيه نعرة ، وفى رأسه نعرة

(٤) نضا : نزع ، والمجن : الترس وكل ماوقى من السلاح ، ولبس جلد النمر : وقلب ظهر المجن : تحول عن الصداقة إلى العداوة وأسقط الحياء وفعل ماشاء

(٥) الجدب : القحط وما قابل الخصب ، وعن الحسن البصرى فى

وصَلَدَتْ أَخْلاقُهُ [١] ، وبَلَدَ إِحْسَاسُه [٢] ، وبَرَدَتْ عَوَاطِفُه ، ولَبِسَ أُذُنَيْه [٣] ، وَأَخَذَ يَعْثُرُ فى سَيرِهِ عَثَرَاتِ يَدْمَى مِنهَا الأَظَل [٤] ، ويَدْحَضُ دَحَضَاتٍ تُخْرِجُهُ إلى سَبِيلِ مَنْ ضَلّ [٥] ، فكأَنّ الرَّآسَةَ ، مَعْمُودِيَّةُ ، إِبْلِيسَ [٦] ، مَن عُمِّد بِهَا فَصَارَ رَئِيسًا ، انْقَلَبَ شَيطَاناً نَجِيسًا ، وآضَ صِلاً

وصف ناس : أجدب قلوب وأخصب ألسنة

(١) صلدت : صارت صلدة لاتبض ولاتورى ، ومن ذا يقال للبخيل : صلدت زناده

(٢) يقال : بلد فلان بعد نشاط : إذا فتر ونكس ، قال الشاعر:

جرى طلقا حتى إذا قيل سابق تداركه أعراق سوء فبلدا

(٣) يقال : لبست على كذا أذنى ؛ إذا سكت عنه ولم تتكلم وتصامت عنه ، قال ابن مفرغ :

فلبست سمعك ثم قلت أرى العدى كثروا وأخلف موعدى أشياعى

(٤) الأظل من الإبل : باطن المنسم ـ المنسم للبعير كالظفر للإنسان ـ ومن الإنسان بطن الإصبع وفى المثل : إن يدم أظلك فقد نقب خفى ، قال أبو عبيدة : يقال هذا إذا أراد المشكو إليه أنه فى نحو مافيه صاحبه الشاكى، أى أننى فى مثل حالك

(٥) دحضت رجله : زلقت

(٦) المعمودية : اصطلاح مسيحى ، وهى غسل الصبي وغيره بالماء باسم الآب والابن وروح القدس ، قال صاحب المنجد : وهى أول أسرار

فى مِسْلَاخِ إنْسان [١] ، وحِرْباء ذَا أشْكالٍ وألْوَان [٢]

كَأَبِى بَرَاقِشَ كُلَّ لَوْ ـ ـنٍ لَوْنُهُ يَتَخَيَّلُ [٣]

كانَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ يُسَمِّى حَمَامَةَ المَسْجد ، لِلُزومِهِ المسجدَ الحرامَ ، فَلَمَّا أتاهُ الْخَبَرُ بِخِلافته كانَ الْمُصْحَفُ فى حِجْرِهِ

الدين المسيحى وباب النصرانية

(١) آض يئيض : صار ، والصل : الحية الخبيثة جداً ، والمسلاخ : الإهاب وقشر الحية الذى تنسلخ منه

(٢) الحرباء : دويبة على شكل سام أبرص ، ذات قوائم أربع ، دقيقة الرأس ، مخططة الظهر ، يستقبل الشمس برأسه ويكون معها كيف دارت ؛ يقال إنما يفعل ذلك ليقى جسده برأسه ، ويتلون ألواناً بحر الشمس ، والأنثى : الحرباءة

(٣) أبو براقش : طائر يتلون ألوانا ، شبيه بالقنفذ ، أعلى ريشه أغبر ، وأوسطه أحمر وأسفله أسود ، فإذا انتفش تغير لونه ألواناً شتى ، قال الشاعر :

إن يبخلوا أو يجبنوا أو يغدروا لايحفلوا
يغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا
كأبى براقش كل لو ـ ـن لونه يتخيل

وصف هذا الشاعر قوماً مشهورين بالمقابح لايستحون ولايحتفلون بمن رآهم على ذلك ، وقوله يغدوا : بدل من قوله لايحفلوا ؛ لأن غدوهم مرجلين دليل على أنهم لم يحفلوا ، والترجيل : مشط الشعر وإرساله

فوَضعه ، وقالَ : (هذا فِرَاقُ بَيْنِى وبَيْنِكَ) وقد قال يوما : إنى كُنتُ أَتحَرَّجُ أن أَطأَ أُنمُلَةً والآن يَكْتُبُ الحجاجُ إلىّ فى قَتل فِئامٍ [1] من الناسِ فَمَا أَحْفِلُ بِذلك . وقال له الزهرى يومًا : بَلغَنى أنَّكَ شَرِبْتَ الطِّلَاء [2] ، فقال : إى ـ والله ـ والدِّماء . ومِمَّا يُؤثر عنهُ قوله : عَجِبْتُ لِلسُّلطان كيف يُحْسِن وإذا أَساءَ وَجَدَ مَنْ يُزَكِّيهِ ويَمْدَحُه ! . . وإنّ فى ذلك لَعِبْرَةً لِمَنِ اعْتبر .

أحمد فتحى زغلول : وَمِمَّا ابْتُلِيَتْ بِهِ مِصْرُ على الْخُصُوصِ فى رُؤَسَائِهَا أَنَّ أَكثرَهُمْ لَيْسَ بَيْنَهُم وبَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ آصِرَةٌ وَطَن ، فَجُلُّهُمْ دَخِيلٌ يَنْمِى إلى أَصْلٍ غيرِ مصرى ، فمنهم عَبِيثَةٌ من الأقوام ولَوِيثَة ، ما يُعْرَفُ لَهُمْ مَضْرِبُ عَسَلَة [3] : ومنهم مَن قد ضَرَبَتْ فيهم نساؤهم بِعِرْقٍ ذى أَشَب [4] ؛ فإذا هم تَوَلَّوْا أَمْرَ مِصْرَ تدارَكَتْهُمْ أَعْرَاقُ

---

(١) فئام : جماعات

(٢) الطلاء : الخمر

(٣) عبيثة ولويثة : ليسوا من أب واحد تهبشوا من أماكن شتى ، ويقال لمن ليس له نسب معروف أو لا أصل ولا قوم ولا أب ولا شرف : ما يعرف لهم مضرب عسلة

(٤) أى عرقت فيهم عرق سوء ، وذو أشب : أى ذو اختلاط

سُوءٍ ، ونَزَتْ قُلُوبُهم إلى إيذائِهَا وكانوا حَرْبًا لِلمصريين[1] وَعونا لِلغاصِبِ عَلَيْهِمْ . وَلَقَدْ خَالَطْتُ فى العاجِلةِ كلَّ جَالةٍ مِنَ الجالاتِ[2] فى مِصْرَ على تَنَوُّعِهِمْ وتَعَدُّدِهِم فَوَجَدْتُهُمْ جَمِيعًا ، حَتَّى المُسْلِمِينَ مِنْهُمْ حَتَّى أَحَطَّ الطَّوَائِفِ — إلّا مَنْ طَابَ غَرْسُه ، وكرمت نَفْسُه — يَحْمِلُون الحِقْدَ والاحْتِقَارَ مَعًا لِلْمِصْرِيِّينَ برَغمِ أنَّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فى نَعْمَائِهِمْ . وَهَذَا من غَرِيبِ طَبائِعِ البَشَر ، إذ لَسْتُ أدْرِى لِذَلِكَ سَبَبًا سِوَى كَرَمِ المِصْرِيِّينَ ، وَأنّ الكِرَامَ مَشَاغِلُ السُّفَهَاء :

وأَنّى شَقِيٌّ باللِّئَام وَلا تَرَى
شَقِيًّا بِهِمْ إلّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

حفنى ناصف : نَعَمْ ، ومَسَاكِينُ هُمُ الأخْيَار ، وويْلٌ لَهُمْ مِنَ الأشْرَارِ : فالأشْرَارُ لا يُعْجَبُونَ إلّا بالأشْرَار ولا يَحْفِلُونَ بالأخْيار ، بَلَى ! وتَرَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُولَعِينَ بِهِمْ وبإيذَائِهِم : والأصْلُ فى هذا أنّ حَالَ الأخْيَارِ الكِرَامِ

---

(١) يقال فلان حرب لى : أى عدو وإن لم يكن محارباً

(٢) الجالة والجالية : الذين جلوا عن أوطانهم

أَهْلِ الْوَفَاءِ والمُروءَةِ والشَّهَامَةِ ناصِعَةٌ نَيِّرَةٌ واضِحَةٌ وُضُوحَ النَّهَارِ المُسْتَطِيرِ فى رَوْنَقِ الضُّحَى . أمّا الأشْرَارُ اللِّئَامُ فَشَأْنُهُمُ الغُمُوضُ واللُّبْسَةُ (١) والإبْهَامُ ، شأْنُ اللَّيْلِ ذِى الظُّلَمِ والدُّجَى ، والمَجْهُولُ أبداً مَخُوفٌ مَهُوبٌ مَرْهُوب ؛ ومِنْ ثَمَّ تَرَى الناسَ لا يَخَافُونَ إلّا مَنْ كانَ هَذَا شَأْنَهُ ؛ فَضْلاً أنَّهُمْ يُكْبِرُونَهُ ويُبْقُونَ على وُدِّه ؛ ولَا جَرَمَ أنَّ الشَّرَّ لا يَدْفَعُهُ إلّا الشَّرّ ، والحَدِيدَ بالحَدِيدِ يُفْلَح (٢) ، والشُّهْرَةُ بالمَلاينَةِ والخَيْرِ شَرٌّ مِن الاشْتِهارِ بالغِلْظَةِ والشَّرّ ، لأن مَنْ عُرِفَ بأَخِى الشَّرِّ اجْتَرَأَ عَلَيْهِ النّاسُ ، ومن عُرِفَ بأَخِى الخَيْرِ هَابَهُ النّاسُ وتَجَنَّبُوه (٣) ؛ ورَحمة الله على الفاروق إذ قيل له فلان لا يَعرِفُ الشَّرّ ... فقال : ذَاكَ أوْقَعَ له فيه ... أو ماهذا معناه ؛ وبعد : فإنّ أكْثَرَ هذا الناسِ لَئِيمٌ قَدْ طُبِعَ على ضَرَائِبَ منَ اللُّؤْم ؛ ومِن ثَمَّ

---

(١) اللبسة : الالتباس وعدم الوضوح

(٢) الفلح : الشق والقطع

(٣) أخو الشر : هو الخير ، وأخو الخير : هو الشر

كان جديراً بالمرء يهمه الاحتفاظ بنفسه وبعرضه [1] ودينه وماله وبلاده أن يمزج كرمه باللؤم، وخيره بالشر، وعقله بالجهل، ويضع كل شيء موضعه، ويقر الأمور فى نصابها، وإلا استأسد عليه الناس وتداءبوا، وطمعوا فيه وتكالبوا:

من ظلم الناس تحاموا ظلمه
وعز عنهم جانباه واحتمى
وهم لمن لان له جانبه
أظلم من حيات أنباث السفا [2]

---

(١) العرض: موضع المدح والذم من الإنسان، سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره؛ وقيل: هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يتنقص ويثلب؛ وقال أبو العباس ثعلب: إذا ذكر عرض فلان فمعناه أموره التى يرتفع أو يسقط بذكرها من جهتها بحمد أو بذم فيجوز أن تكون أموراً يوصف هو بها دون أسلافه؛ ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيبهم

(٢) تحاموا ظلمه: تباعدوا عنه؛ وعز عنه: امتنع عنهم، والعزة: القوة والشدة، وجانباه: ناحيتاه، واحتمى: امتنع، ولان: ضعف وسهل؛ والأنباث: التراب المستخرج من البئر، يقال: نبث ينبث: إذا حفر؛ والسفا هنا: التراب، وهو ما تسفيه الريح أى تحمله وترمى به؛ وقيل السفا

قال الأديب : فقلت : ومِنَ العَجَبِ العُجَابِ أنّ الكلِمةَ الآنَ هِيَ كَلِمَةُ الشُّعُوب ، فَقَدْ أصبَحَتْ حكوماتُ العالَمِ كُلُّها أو جُلُّها شُورَى ، وصَارَ لهَا مَجالِسُ نِيابِيَّةٌ بِيَدِهَا الحلُّ والعَقْدُ والهَيْمَنَةُ على المُلُوكِ والحاكِمِين ، وجاءَ دَوْرُ مِصْرَ بِأَخَرَةٍ فأَصْبَحَ لهَا «بَرْلَمَان» لَمْ يَظْفَرْ به المِصْرِيُّونَ إلا بَعْدَ أنْ خُضِّبَتْ أَيْدِيهِمْ بالدِّماء ، وبَذَلُوا فى سَبِيلِهِ حُرَّ المَالِ والدِّماء [1] ؛ وعلى الرَّغْمِ من ذلك ومن أنّ المِصْرِيِّينَ ، وَهُمْ فى الرَّوَابى من الشُّعُوب [2] وأعْرَقُهُم فى الحَضَارَةِ وأَسْبَقُهُم إلى المَجْدِ والسُّؤْدَدِ ، وأرْسَخُهُم قَدَمًا فى العِلْمِ والعِرْفان ، ودِينُهُم دِينُ الحُرِّيَّةِ الصَّريحَه ، والمَدَنِيَّةِ الصَّحيحَه :

تراب القبر ، والسفا فى غير هذا : شوك البهمى ـ البهمى : نبات يشبه الشعير

(١) الحر من كل شىء : خياره وطيبه ، والذماء هنا : الروح ؛ يقال : أطول ذماء من الضب : والذماء فى الأصل : بقية الروح ، يقال : مابقى منه إلاذماء يتردد فى خيال

(٢) يقال فلان فى رباوة قومه وفى الروابى منهم : أى فى أشرافهم وسرواتهم

قَوْمِيَ اسْتَوْلَوْا على الدَّهْرِ فَتًى
ومَشَوْا فَوْقَ رُؤُسِ الْحِقَبِ
عَمُّوا بالشَّمْسِ هَاماتِهُمو
وبَنَوْا أَبْيَاتَهُم بالشُّهُبِ
قد قَبَسْنَا المُلْكَ عَنْ خيرِ أبٍ
وقَبَسْنَا الدِّينَ عَنْ خَيْرِ نَبِي

فكانُوا لِذَلِكَ أَحَقَّ من غَيْرِهِم بالبَرْلمانات وبما هُوَ أَكْثَرُ من البَرلمانات، وَلٰكِنْ على الرَّغْمِ من ذلك كُلِّهِ وَمِنْ أَنَّ بَرْلمانَهُم لم يَتَرَعْرَعْ بَعْدُ، وَلَمْ يَشِبَّ عَنِ الطَّوْقِ ـ مال عليه هؤلاء الرُّؤساء، أو هؤلاء الأعداء، وعبثُوا به عَبَثَ النَّكْباءِ بالعُود[1]، وتَمادَوْا فى طُغْيانِهِم يَعْمَهُون، فانْعَكَسَتْ بذلك الآيَه، وأَسْلَمَتْنا البَدَاءَةُ لِلنِّهايَه، وانقلَبَ المُهَيْمِنُ مُهَيْمَنًا عليه، وَكأَنَّ البَرْلمان لُعْبَةٌ يُلْعَبُ بها لَاحَكَمٌ يُحْتَكَمُ إليه، ولاذَنْبَ للبرلمان فى هذا سِوَى أَنَّه أَوْشَكَ أن يَقُومَ بِمُهِمَّتِه خيرَ قِيام، وأنْ يُحاسِبَ الحِسابَ

---

(١) النكباء: الريح تنحرف عن مهاب الرياح وتقع بين ريحين

العَسيرَ هؤلاء الحُكّام :

إذَا مَحَاسِنِيَ اللَّائِي أُدِلُّ بِهَا
كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ؟

إبراهيم المويلحي : إذَنْ لا بُدَّ مِنْ أَنَّ الغَاصِبَ يَعْضُدُ هؤلاء الرؤساء ، ويَحُوطهم ويُغْرِيهم بهذه الأُمَّةِ السَّيِّئة الحَظّ :

وكيف يَخْشى صَوْلَةَ الذِئب مَنْ
قَدْ جَعَلَ السَّبْعَ لهُ عُدَّه

محمد فريد : بَيْدَ أَنَّ هؤلاء الرؤساءَ لَوْ كانوا من الطِرازِ الأَوَّلِ ذوى الشَرَفِ والنُبْلِ والإباء ، والعِزَّة القَعْسَاء[1] ، والْعِيصِ الأَشِب ، والفَعَالِ المَوْرُوثِ والمُكْتَسَب[2] ، لا تَلِينُ

---

(١) القعساء : الثابتة

(٢) أصل العيص : منبت خيار الشجر ، قال جرير :

فما شجرات عيصك فى قريش بعشات الفروع ولا ضواحى

وفلان فى عيص أشب : أى فى عز ومنعة فى قومه ، والأشب فى الأصل : الشجر الملتف ، ثم قالوا منه فى أمثالهم ـ فى استعطاف الرجل صاحبه على أقربائه وإن كانوا له غير مستأهلين ـ : عيصك منك وإن كان أشبا ، أى وإن كان ذا شوك داخلا بعضه فى بعض ؛ وهذا ذم ، وقد يريدون المدح فى مثل قول الشاعر : * ولعبد القيس عيص أشب *

قَنَاتُهُم لِغامِز (١) ، ولا تَتَهَضَّمُ نُفُوسُهُم لِظالم (٢) ، ولا تتعاظَمُهُم جَبُورَةُ مُحْتَل (٣) ، أو كانوا على الأقلّ مِمَّنْ يُكْرِمُون أَنفُسَهم

لأنه يريد المنفعة والكثرة والعز والمنعة . . . ؛ والفعال - بفتح الفاء - المراد به هنا الكرم - ضد اللؤم - أما أهل اللغة فقد اختلفوا ؛ فقال الليث : الفعال : اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه ، قال هدبة :

ضروب بلحييه على عظم زوره إذا القوم هشوا للفعال تقنعا

وقال ابن الأعرابى والأزهرى والمبرد : الفعال : يكون فى المدح والذم ، يقال فلان كريم الفعال وفلان لئيم الفعال

(١) القناة : الرمح ؛ والقناة أيضا : القامة ، يقال فلان صلب القناة ، والغمز : العصر باليد ؛ قال الشاعر :

كانت قناتى لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء

وهذا مثل يريد أنه كان صلب العود شديد القوة على من يشتده ويجترئ عليه ، والمراد هنا كذلك أنهم من القوة بحيث لا يؤثر فيهم مؤثر

(٢) تهضمه : ظلمه ؛ وتهضمت نفسى له : إذا رضيت منه بدون النصفة والمعدلة

(٣) الجبورة كالجبروت ؛ الكبر الذى لايرى صاحبه لأحد عليه حقا ، قال :

فإنك إن عاديتنى غضب الحصى عليك وذو الجبورة المتغطرف

يقول هذا الشاعر : إن عاديتنى غضب عليك الخليفة ، وما هو فى العدد كالحصى ، والمتغطرف : المتكبر

ويتجافون بها عن مواطن الهوان ، أو كانوا مخلصين لهذه الأمة آبهين لها ، لما بالوا - وربك - بالغاصب ، ولمضوا قدما فيما فيه صلاح بلادهم مهما لاقوا فى هذا السبيل ؛ ولو أن كل رئيس كان هكذا لرجع الغاصب أدراجه ، وتأخر أخرا فى سبيل طاعيته ، ولكن أكثر الرؤساء فى مصر - إلا من هدى ربك - سواسية كأسنان الحمار ، أو كحمارى العبادى ؛ وقد قيل له : أى حمارك شر ؟ فقال : هذا ثم هذا[1] :

---

(١) يقال : هم سواسية : إذا استووا فى اللؤم والخسة والشر ، قال الفراء : يقال هم سواســـية : أى يستوون فى الشر ، قال : ولا أقول فى الخير ، هذا ومن أمثالهم * سواسية كأسنان الحمار *

وهو من أشد الهجاء ، وذلك لأن أسنان الحمار مستوية ، وهذا مثل ماروى فى الحديث : «لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا ، فإذا تساووا هلكوا» وأصل هذا أن الخير فى النادر من الناس ، فاذا استوى الناس فى الشر ولم يكن فيهم ذو خير كانوا من الهلكى ، وقيل أراد بالتساوى : التحزب والتفرق ، وأن لا يجتمعوا فى إمام ؛ ويدعى كل واحد منهم الحق لنفسه فينفرد برأيه . . . والعبادى : أى الرجل المنسوب الى عباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب ؛ اجتمعوا على النصرانية فأنفوا أن يتسموا بالعبيد ، وقالوا : نحن العباد ، نزلوا الحيرة ، ومنهم عدى بن زيد العبادى الشاعر

خِلَقٌ إذا حَدَّثْتَ عَنْ أَخلاقِها
فكأنما كَشَفْتَ عَنْ سَوْآتِها
مُتَرَاهِنِينَ عَلَى الدَنِيَّةِ أَحْرَزُوا
غاياتِها وتَنَاهَبُوا حَلَباتِها
وَرِثَتْ نُفُوسُهُمُ خَبَائِثَ أَصْلِها
لُؤْمًا وَزَادَتْ دِقَّةً مِنْ ذَاتِها
ومُلَثَّمِينَ عَلَى النِفاقِ بأَوْجُهٍ
صُمٍّ يَصِيحُ اللُؤْمُ فى جَنَباتِها

وَمِنْ هُنَا كان طَمَعُ الغاصِب فى هذه الأمة، وَتَهالُكُهُ عليها .

* * *

قال الأديب : وهنا قال الشيخ محمد عبده : وَثَمَّةَ شىء آخرُ يَكْشِفُ لك سِرًّا من أسرار فَشَلِ هذه الأمة وذَهابِ رِيحِها ؛ إذْ تَنْزو إلى الخِلاف وَالنِّزاعِ والشِقاق ، ذلك أن جَمْهَرَةَ الشَرْقِيِّين وخِصِّيصَى المُسلِمين منهم ـ حَدِيدُو العَواطِف مَشْبُوبُو المَشاعِر ، فاذَا مَا أَحَبُّوا أَغْرَقُوا فى الحُبِّ حَتى يَبْلُغُوا النهايه ؛ وإذا ما أَبْغَضُوا أَوْفَوا فى البُغْض على الغايه ؛ لا يَلُوذُون فى تَصاريفهم إلى رُكْنٍ من الحِجا رَكين ، وَلا يَعْتَصِمُون لَدَى الحَفِيظَةِ بِعَاصِمٍ من الخُلُقِ

وَالدِين ، لَيْسُوا إذا عُدّ الدُهاةُ فى العِيرِ ولا فى النَفِيرِ[1] ؛ فكأنّ حُلُومَهُم نَفَخَتْ فيها الأعاصِير ، يَعُوزُهُم ضَبْطُ النَفْسِ إذا صَرَّحَ

---

(١) يقال لمن لايصلح لخير ولا لشر ولا يحفل به : لافى العير ولا فى النفير ، والعير : هى عير قريش ـ أى قافلتها وميرتها ، والإبل التى تحمل تجارتها ـ التى أقبل بها أبوسفيان من الشام فنهد إليها المسلمون من المدينة وكانت غزوة بدر ، وأما النفير فمن نفر من قريش ليدفع عن العير فجاؤا ؛ وكانت وقعة بدر كما قلنا ، وقد جاء هذا المثل فى حديث طريف نورده هنا لروعته وجماله : روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدا ـ وكان هذا خالد من رجالات قريش عقلا وعلماً وفصاحة ـ فقال : ياأخى لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بئس والله ماهممت به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين : فقال : إن خيلى مرت به فعبثت بها وأصغرنى ، فقال له خالد : أنا أكفيك ، فدخل خالد على عبد الملك بن مروان والوليد عنده : فقال : يا أمير المؤمنين الوليد ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره ـ وعبد الملك مطرق ـ فرفع رأسه وقال : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ؛ فقال خالد : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، فقال عبد الملك : أفى عبدالله تكلمنى ؟ والله لقد دخل علىّ فما أقام لسانه لحنا ، فقال له خالد : أفعلى الوليد تعول ؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان ! فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فان أخاه خالد ؟ فقال له

الشرّ ، وترْكُ الهَوَى إذا أمْكَن الأمْر : بينما الأغْيارُ وَخِصِّيه ، الشُعُوبَ الآرِيّه ، ولا سِيَّمَا القادةُ وذَوُو الرآسة وأُولُو الأمْر مِنْهم والمُتَصَدُّون لِسياسَة الأُمَم ، يُحَكِّمُون عُقُولَهُم على قُلوبهم ، ويُؤْثِرُون مَرَافِقَهُم على أهْوَائِهم : ذَوُو رَأْى وتدْبير ، وبَصَرٍ بأَعْقابِ الأُمور ، وأَناةٍ لا يَطير الجهل فى جَنَباتها ، ولا يَنْزِلُ الطَيْشُ بِسَاحَةٍ من ساحاتها ؛ وبِذَا بَذُّوا الشَرْقِيِّين ، وأَضْحَى هؤلاء لهم مَسُودِين ، ولو شاء الشَرْقِيُّون أن يدَّارَكُوا أُمُورَهم ، لَدَاوَوْا بكل الأشافِيِّ أَلْبابَهُم :

لولا العُقُولُ لكان أَدْنى ضَيْغَمٍ
أَدْنى إلى شَرَفٍ منَ الإنْسان

الوليد : اسكت يا خالد ، فوالله ما تعدّ فى العير ولا فى النفير : فقال خالد : اسمع ياأمير المؤمنين ، ثم أقبل على الوليد وقال : ويحك فمن العير والنفير غيرى ؟ ! جدى أبوسفيان صاحب العير ، وجدى عتبة بن أبى ربيعة صاحب النفير ، ولكن لو قلت : غنيمات وحبيلات والطائف ورحم الله عثمان ، لقلنا: صدقت . . . ، قوله غنيمات وحبيلات : يعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أطرد الحكم بن أبى العاص بن أمية - وهو جد عبد الملك بن مروان - لجأ إلى الطائف فكان يرعى غنيمات ويأوى إلى حبيلة ، وهى الكرمه ؛ وقوله رحم الله عثمان : أى لرده إياه .

* * *

وَإذا الرِياسَةُ لَمْ تُعَنْ بِسِياسَةٍ
عَقليَّةٍ خَطِئَ الصَوابَ السَائِسُ

ثم قال الشيخ محمد عبده : وهذا على الرَغْم منْ أنّ الإسلامَ الذى يَدِينُون به ، وَيزْعُمون أَنَّهُم مُسْتَمْسِكُون بأَدَبه ، كَثيرا مانهى عنِ اتّباعِ الهَوَى ، وَحَضَّ على الاستمساك بالعَقْل وَالنُّهَى ، فقد اكْتَظَّ كتاب الله وَأحاديثُ المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ وما أُثِر عن السَلَف الصالح ، من التَنْويه بالعقل والإشادة بذِكْرِه ، والحَضّ على اللُجوء إليه ، والاعتمادِ فى سائر الأمور عليه ، والكِياسَه ، وحُسْنِ السِياسه ، وَالاعْتِصَامِ بالتَّقْوَى ؛ بما لَا يُعَدُّ وَلا يُحْصَى ، وحَسْبُهُمْ قولُ الله جَلَّ شأنه : « ولا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ الله . . . » وَالْهَوَى كلُّ مَا تَهْوَاه النَفْس وتَصْبُو إليه مما لا يتَّفِقُ وَالعَقْلَ وَالنُّهَى . . . وَقال ـ ولله المثل الأعلى ـ يُعَيِّرُ قَوْمًا وَيُشَنِّعُ عليهم ويُسَفِّهُهُم ويُصْغِى إنَاءهم[1] : « إنْ يَتَّبِعُون إلا الظَنَّ وَما تَهْوَى الأنْفُسُ . . . »

---

(١) يقال فلان يصغى إناء فلان : إذا نقصه ووقع فيه ، قال :

ويقول سبحانه فى مواضعَ من كتابه الكريم : «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ ...» وقال : «لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فى أَصْحَابِ السَّعِيرِ ... ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ... خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين ...» إلى كثير من هذه الآيات الكريمة التى يَزْخَرُ بها كتاب الله ... وكان المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ إذا بلغه عن إنسان عبادة قال : كيف عَقْلُهُ ؟ فإن قالوا عاقل ؛ قال : مَا أَخْلَقَهُ أَنْ يَبْلُغَ ، وإن قالوا ليس بعاقل : قال : ما أخلقه أن لا يَبْلُغَ . وقال : مَنْ لَمْ يكن عَقْلُهُ أغلبَ خِصَالِ الخيْرِ عليه كان حَتْفُهُ فى أغلبِ خِصَال الخير عليه ... وقال : اعْصِ هَوَاكَ والنساءَ وَأَطِعْ مَنْ شِئْتَ ؛ وقال عليه السلام : أَلَا أُخْبِرُكُم بِأَحَبِّكُم إِلَىَّ وَأَقْرَبِكُم مِنِّى مَجَالِسَ يَوْمَ القِيَامَةِ : أَحَاسِنُكُم أَخْلَاقًا المُوَطَّئُون أَكْنَافًا الذين يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُون ، أَلَا أُخبركم بأَبْغَضِكم إِلَىَّ وَأَبْعَدِكم مِنِّى مَجَالِسَ يَوْمَ القِيَامَة : الثَّرْثَارُون المُتَفَيْهِقُون[1] ... وقال فى

فإن ابن أخت القوم مصغى إناؤه اذا لم يمارس خاله بأب جلد

(١) الموطئون أكنافا : يريد وصفهم بدماثة الخلق ولين الجانب ؛

معنى القصد فى الأمر وأن لا يغلو المرء فى الحب والبغض :

أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ،
وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما

ولم لا يقول هذا والكثير الكثير من أمثاله من أدبه ربه فأحسن تأديبه ؟ ويقول له وهو أصدق القائلين : « وإنك لعلى خلق عظيم ... »

ولو أن المسلمين تدارسوا سيرة الرسول ووقفوا على شمائله الكريمة وأخذوا إخذه ، وحذوا حذوه ، واهتدوا بهدايته ، وفطنوا إلى مرامي سياسته ، لكان منهم أكبر ساسه ، ولسادوا العالم وناسه ، كما كان من خريجيه وتلاميذه الصديق والفاروق وذى النورين وأبى تراب وابن أبى سفيان [1] وسائر صحابته . وتابعيهم من المستنين بسنته : أولئك الذين أنعم الله

والثرثارون : يعنى الذين يكثرون الكلام تكلفا وتجاوزا وخروجا عن الحق ؛ من قولهم : عين ثرة ، أى كثيرة الماء ؛ والمتفيهقون : من قولهم فهق الغدير : اذا امتلأ ماء ؛ يريد أنهم يوسعون أشداقهم ويملأونها بالكلام

(١) ذو النورين : عثمان بن عفان ، وأبو تراب : على بن أبى طالب ؛ وابن أبى سفيان : معاوية

عَلَيْهِم ونُشِّئُوا فى حَضَانةِ صَفِيِّهِ وَخِيَرَتِه مِنْ خَلْقِهِ، رضوانُ الله عليهم أجمعين .

* * *

قال الأديب الثقـــة : ولقد أنبهتُكَ غيرَ مَرّة إلى أن لُغةَ أهلِ الجنه ، غيرُ لغةِ دارِ المِحنه ، ومِنْ ثَمّ كانَ كُلُّ ما أعْزُوه فِى هَذا الحديثِ مِنَ القَولِ إلى قائليهِ مِنْ أهْلِ دارِ السلامِ أشْبَهَ بالمنْقُولِ من لغة إلى لغه . ولٰكِنْ لا كَالحَسْناءِ وخيالِها فى المِرآه ، لا ، ولا مِنْ قَبيلِ المُتَرْجَم مِنْ لُغَةٍ إلى لُغةٍ تُضارِعُها أو تُقارِبُها رِفعَةً وسَناء . أو أن المُتَرْجِمَ يُدَانِى القائِلَ الأصْلِىَّ بلَاغَةً وأداء ، ولكن إذا كان لا بُدّ من التشبيه فأشْبَهُ شىء بذلك — ولِلْجَنَّةِ ومَن فيهَا المَثَلُ الأعْلَى — أن تَعمِدَ إلى رَجُلٍ من العامّة صَلْدِ الذِّهْنِ ، أغْلَفِ القلْب ، رَانَ عَلَيه الغَبَاءُ (١) فتُسْمِعَه إحْدَى أوابدشوقى (٢) وتَقِفَهُ على مَراميها ثم تَسْتَعِيدَهُ ما سَمِعَ وانْظر ما أنت سامع . . . ولقد أذكرنى هذا التشبيهُ ما كانَ بيْنَ المُعْتَمِد بن عَبّاد أحدِ مُلوكِ الطوائِفِ

---

(١) ران عليه : غلب عليه

(٢) إحدى قصائده الخالدات

بالأندلس وبين يوسف بن تاشفين البربرى ملك مراكش . وذلك أن ابْنَ عبَّاد أرسل إلى ابن تاشفين رسالة تمثَّلَ فيها ببَيْتَى ابْنِ زَيدون :

بِنْتُم وبِنّا فما ابْتلّتْ جوانِحنا
شَوقاً إلَيْكُم ولا جَفَّتْ مآقِينا
حالَتْ لِفَقْدِكُم أيّامُنَا فغَدَتْ
سُودًا وكَانَتْ بِكُم بِيضًا لَيَالِينا

فلما قُرئَ عليه هذان البَيْتانِ قال للقارئ : يَطْلُبُ مِنّا جَوارِىَ سُوداً وبِيضًا ! قال القارئ : لا يا مولاى ، ما أراد إلّا أنَّ لَيْلَهُ كَانَ بقُرب أمير المسلمين نَهارًا ، لِأنّ لَيالِىَ السُّرورِ بِيضٌ . فعاد نهارُه بِبُعْدِه لَيْلًا ؛ لِأنّ لَيالِىَ الْحُزْنِ ليالٍ سُود . . فقال : والله جيّد . اكتب له فى جوابه : إن دُموعَنا تَجْرِى عليه وَرُؤُسَنا تُوجِعُنا من بعْدِه . . وكذلك شأنى فى وصْفِ الجنة وكلامِ أهليها ، بعد هُبُوطى إلى الدنيا وتمرُّغى فيها ، وما حيلتى وقد كانتْ مِرآةُ ذِهْنى وأنا فى الجنّه . أسمَعُ كلامَ أولئك الجِلّه ؛ كأنّها الوَذِيلةُ المُسْتَوِيَةُ صَفاءً وصِدْقًا

وبَلاغًا[١] ، فلمّا غادَرْتُها وظَنَنْتُ أنّى سأَقُصُّ لذلك عليك أحسَنَ القَصَص . وأرْوِى لك ما سَمِعتُ كما هُوَ دُونَ أن أُخرِمَ مِنه حَرْفا . أو أَنْ أَحِيفَ عَليه حَيْفًا ، [٢] رأيت هذه المِرآةَ وقد آضَتْ مُقَعَّرَةً حَدْباء ، فأَنّى لك بعد هذا إلا أن تَسْمَعَ هذه الأحاديثَ مُحَرَّفَةً شَوْهاء ؛ ولا غَرْو فَلَيس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء ، أمّا المُسَمَّيَاتُ فبينها مِنَ التَفاوُتِ مابينَ الأرْضِ والسماءِ ؛ بَيْدَ أنه ـ كما قلنا ـ إن لم يكن صَدّاء[٣] ، فماء ؛ وإن لم يكن خَمْرا ؛ فخل ، وإن لم يُصِبْها وَابِلٌ فَطَلّ ، ومن لم يَجِدْ ماءً تَيَمّما . فتَفطن دائماً لذلك . ولا تُخْلِه قَطُّ مِنْ بَالِك .

مأدبة جامعة

فى قصر الشيخ محمد عبده بالجنة

حدّث الأديب الثقة قال :

وتَعَلَّم ـ عَلِمْتَ الخَيرَ ـ أنّ أهْلَ الجَنَّةِ يَتَزاوَرُونَ

---

(١) الوذيلة : المرآة (٢) خرمه : نقصه ، وأحيف : أجور

(٣) صداء : ركية ـ بئر ـ ليس عند العرب ماء أعذب من مائها ؛ وفى المثل : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان

ويَدْعُو بَعْضُهم بَعضًا ، كأَهْلِ العَاجِلة ، توفِيرًا لِأُنْسِهم ، وتَتْمِيمًا لِمَسَرَّاتِهم ، قال جل وعز : « وأَقْبَلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلون ، قالوا إنّا كُنّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِين ، فَمَنّ اللهُ علينا وَوَقانا عَذابَ السَّمُوم ، إنّا كُنّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إنّهُ هُوَ البَرُّ الرَّحِيم » وقال سبحانه : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلونَ ، قال قائلٌ مِنْهُمْ إنِّى كانَ لِي قَرِين ، يَقُولُ أَئِنّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ ، أَئِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً وعِظَامًا أَئِنّا لَمَدِينُونَ ، قال هَلْ أَنْتُمْ مُطّلِعُونَ ، فَاطّلَعَ فرآهُ فى سَواءِ الجَحِيم ، قال تَاللهِ إنْ كِدْت لَتُرْدِين ، وَلَولَا نِعْمَةُ رَبِّي لكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِين » .

قال الأديب : فلما انْتَهَينا إلى هَذَا المَوضِعِ مِنَ الحديث وقَبْلَ أنْ نَنْتَقِلَ إلى مَوْضُوع آخَرَ مِما رَغِبَ الإخْوَانُ فى أنْ يَسْتَطْلِعُوا طِلْعَه ، ويَقِفُوا عَليه مِنْ شُؤون مِصرَ والمِصْرِيّين — طَلَعَ عَلَينا فى الخَيْمَة سِرْبٌ مِنَ الحورِ العِين ، بجَانِبِه فَوْجٌ مِنَ الولدَانِ المُخَلَّدِينَ . وأَخذوا يَدْعُونَنا وَاحِدًا وَاحِدًا إلَى مأْدُبَةٍ كُبْرَى أَمرَ بِصُنْعِهَا الشيخ محمد عبده ، وأَدَبَ إلَيْهَا كَثِيراً مِنْ أَعيانِ الإسلام . وَأَئِمّتِه الأعلام ، مِن فقهاء ووعاظ وعلماء

وفلاسفة وأدباء وكتاب وشعراء ولغويين وأطباء ومغنين وملوك ومن إليهم ، فَمِلْتُ إلى الشيخ حمزة فتح الله وقلت له : هل هذه الدَّعْوَةُ دَعْوَةُ الجَفَلَى أو دَعْوَةُ النَقَرَى[1] ؟ فقال : إنّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ وإنْ كانت دعوَةَ النَقَرَى إلاّ أنها مِن قَبيلِ غَيرِ القبيلِ الذى يَبْرَأُ مِنْه طَرَفة بن العبد ويُنَزِّهُ نَفْسَه وقَوْمَهُ عنه إذ يقول :

نَحْنُ فى المَشتاةِ نَدْعو الجَفَلَى لا ترى الآدِبَ فِينا يَنْتَقِرْ[2]

إذ أن للشيخ محمد عبده غَرَضًا سَامِياً نَبِيلًا يَترامَى إليه بهَذِهِ الدَّعْوةِ سَتَعْلمُ نَبَأَهُ بَعدَ حِين .

قال الأديب : أمّا أنَا فَما كادَ نَبَأُ المَأْدُبَةِ يُصافِحُ أُذُنِي حَتى كدْتُ أذُوبُ فَرَحا ، وَأطِيرُ مَرَحا ، وأخَذْت أُهَرْوِلُ أنَا وإمام العبد ، وانطَلَقْتُ كالمُهْرِ الأَرِنِ فى مَيْعَةِ حُضْرِه[3] ؛ ولِمَ لا يَطِيرُ بِنَا الفرح ، ولِمَ لَا يَسْتَخِفّنا الطرب وهناك مأدُبَةٌ فاخِرة ، وأفْواهٌ فاغِرَة ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ صَفْوةِ هَذِهِ

---

(١) يقال دعاهم النقرى : إذا دعا بعضاً دون بعض ، ينقر باسم الواحد بعد الواحد ، وإذا دعا جماعتهم فهى دعوة الجفلى .

(٢) فى المشتاة : يعنى وقت الجدب ، والآدب : الداعى

(٣) الأرن : النشيط المرح ، وميعة الحضر : أوله وأنشطه . والحضر: الجرى

الأمّةِ الطاهِرةِ ؟ آهِ يا أخى آهةَ الرَجُلِ الحَزين ، إنْ نَفْسى تَساقَطُ حَسَراتٍ على أثرِ ماقَدْ فاتَها من نَعيمِ الفِرْدَوْس ، وعِنْدِى أنّهُ لَوْ لَمْ يكُنْ لِلآجِلةِ على العَاجِلةِ مِنْ مَزِيّةٍ سِوَى أن أهْلِيها لَا يَضِيرُهُمُ الطَعامُ والشراب ، فَلَا يُصيبُهم بَشَمٌ وتُخَمَة . وكِظَّةٌ وبَرَدَة ، وغَصَصٌ وشَرَق ، ونزيف وصداع ، وأذًى وخُمار[1] ، مهما طعموا وشربوا ، لرَجَحَت الأُولَى بالثانيه . وَشالتْ فى المِيزانِ كِفّةُ الفَانِيه[2] ؛ وَلكِنْ تَأَبّتِ الأقْدارُ لِحِكمةٍ بالغَةٍ إلا أنْ يُشابَ كُلُّ شيء فى دار البَلَاء ، بما يُكَدِّرُ صَفْوَه . ويُخْبِثُ عَفْوَه[3] ، حتى الطعام والشراب :

---

(١) البشم والتخمة : ما يصيب الإنسان من الطعام من ثقل ، والكظة : البطنة ، كظه الطعام والشراب : إذا ملأه وغمه حتى لا يطيق التنفس ، والبردة : التخمة وثقل الطعام على المعدة ؛ وفى الحديث : « أصل كل داء البردة » والغصص : من غص بالطعام : اعترض فى حلقه شيء منه فمنعه التنفس ، والشرق بالماء ونحوه : كالغصص بالطعام ، والنزيف : ذهاب العقل من السكر ؛ والخمار : بقية السكر

(٢) شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه ، والكلام على المثل ؛ والمراد لفضلت الآخرة على الدنيا

(٣) عفو كل شيء : ماصفا منه

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنْتَ تُرِيدُها صَفْوًا من الأقذاءِ والأقذارِ

ومُكلِّفُ الأيّامِ ضِدَّ طِبَاعِها مُتَطَلِّبٌ في المَاءِ جُذْوَةَ نار

وإلا فهل هُناك لَذّةٌ تَعْدِلُ لذةَ الشَرابِ والطعَام . ولاسيّما لِصحاحِ الأجْسَام ، وإنّهَا لَلَذّةٌ على هَذا مُتَجَدِّدَةٌ تُعَادُ فى الْيَوْمِ الْوَاحِد مَرّات ، وتَتَكَرّرُ وَجَبَات [1] ، وهى على تَكرارِهَا لا تُمَلّ ؛ وعلى تَرْدَادها تَحلُو ولا تُمَرّ :

كَرِيقَةِ المَرْءِ لا تَنْفَكُّ فى فَمِهِ ومَا يَمَلُّ لَهَا طَعْمًا لِإبّانِ [2]

مَنْ عَذِيرِى أيُّهَا النّاس [3] مِنْ لُحومِ الطَّيْرِ وسَائِرِ الحيَوانِ البَرِّىِّ مِنْه والبَحْرِىِّ ، والإنْسِىِّ والوَحْشِىِّ ؛ ومَنْ لى بالفَواكه على وَفْرَةِ صُنُوفِها ، والْخَضِرِ على تَنَوُّعِ أنْواعها وضُرُوبها ، وما أُحيْلَى الْحَلْوَاءَ والفَطائر ، وسَائِرَ ألوانِ هذه الأشْبَاهِ والنَّظائِر ، وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ، كُلُوا من طَيِّبَاتِ مارَزَقْنَاكُمْ واشْكُروا لله ، قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَات من الرزْق ...

---

(١) الوجبات : جمع وجبة : الأكلة الواحدة فى اليوم

(٢) إبان : وقت

(٣) أى من يعذرنى اذا أنا أولعت بهذه الأشياء

وَأَلَمْ يُغْرِ رَبُّكَ آدَمَ بِالْخُلُودِ فِى الْجَنَّةِ بِأَن قال له : إِنَّ لكَ أَن لا تَجُوعَ فيها ولا تَعْرَى ، وأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى [١] ؛ فبدأ باشتراط الشِبَع . ولله عبد الله بن عباس إذ يقول : كُلْ ماشِئْتَ والْبَسْ ماشِئْتَ ما أَخْطَأَكَ إِسْرَافٌ ومَخِيلَة [٢] ، وإذا كان هُنَاك ـ عَمْرَكَ اللهَ [٣] ووقاك ـ مَن هُوَ جَدِيرٌ بالرَّحْمَةِ والرِّثاء ، فَلَيْسَ أَحَقَّ بِذلك من المَعْمُود ، والمَمْنُوِّ بأَدْوَاءِ البُطون [٤] ؛ وإنه لَيُعْجِبُنى الرجلُ قد أُوتِىَ حُمَةَ القَرَم ، وبَالِغَ اللُّقَم [٥] ، فَتَرَاه يَحُطُّ فى

---

(١) ولاتضحى : لاتصيبك شمس مؤذية ؛ قال عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

« فيخصر : فيبرد ويؤذيه البرد »

(٢) المخيلة : الاختيال والزهو والكبر

(٣) عمرك الله : أى سألت الله أن يطيل عمرك ، قال الكسائى : عمرك الله : نصب على معنى عمرتك الله : أى سألت الله أن يعمرك ، كأنه قال : عمرت الله اياك

(٤) معمود : ذربت معدته فلم تستمرئ مايأكله ، وممنو : مصاب ، وأدواء : جمع داء

(٥) القرم : شدة شهوة اللحم حتى لايصبر عنه ، وحمته : شدته ، واللقم : جمع لقمة

الطَّعَام[١] وَيَعْصِفُ فيهِ عَصْفَ الرِيح ، حتَّى لكأنه تِمْسَاحٌ من التماسيح ، وَيَضْرِبُ فِيهِ كما يَضْرِبُ الْوَلِيُّ السَّوْءُ فى مَال اليتيم ، وَيَتَمَلَّأُ منهُ حتَّى يَنْطَفِئَ نَهَمُه ، وَتَلْتَأَّ رُمَانَتُه[٢] ، لا ذَلِكَ الْمُتَنَوِّقُ الْمُتْرَف الأَزُوم[٣] الذى أَخَذَهُ الإِبَاءُ فَتَرَاهُ يَخُطُّ فى الطَّعامِ خَطًّا[٤] . . . وإذا جازَ لى أن أَحْسُدَ أحدا على ما آتاهُ اللهُ منْ فَضْله فَلَسْتُ أَحْسُدُ إلا ذَلِكَ النَهِمَ الْحُطَمَةَ المِبْطَان[٥] الذى أوتِى مِعْدَةَ شَيْطَانِهَا رَجِيم على شَرِيطَةِ أَنْ تُسْعِدَهُ الحَال ، ولا يُؤْذِيه الأَكَال[٦] :

* لو أَكَلَتْ فِيلَيْنِ لم تَخْشَ البَشَمْ *

ومَنْ لى بِذَلك النُّبُوغِ الْكِرْشِىِّ ، وَتِلْكَ الْعَبْقَرِيَّةِ المِعَوِيَّة التى أُوتِيها مُعَاوِيَةُ والْحَجَّاجُ وسُلَيْمَانُ بْنُ

---

(١) يحط فى الطعام : يكثر منه

(٢) النهم : الشره وافراط الشهوة فى الطعام ، ويقال : أكل حتى نتأت رمانته : وهى السرة وماحولها

(٣) المتنوق : المتأنق المترفق ، والمترف : من الترف وهو التنعم ، والأزوم : القليل الرزء من الطعام

(٤) يأكل شيئاً يسيراً

(٥) رجل حطمة : أكول

(٦) الأكال : الطعام

عَبْد المَلِك [١] ، وعُبَيْدُ الله بْنُ زِيَاد وَمنْ على شَاكِلَتِهِم من نَوَابغ الآكِلِينَ ، لَقد أُوتُوا مِنْ دَوَاعِي اللّـذّةِ الْحَظّ العَظِيم ! وهل هُنَاك ـ أنارَ اللهُ بَصِيرَتك ـ أَسْخَفُ من جَمَاعَـةِ النبَاتِيِّين ، وإنّ لى مَعَ شَيْخِهِمْ شَيْخِ المَعَرّةِ لحديثاً

(١) حدث الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص قال :

قدم سليمان بن عبد الملك الطائف وقد عرفت شراهته فدخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب ابنه بستاناً لعمرو ؛ قال فجال فى البستان ساعة ثم قال : ناهيك بمالكم هذا مالا ، لولا جرارفيه ؟ فقلت ياأمير المؤمنين : إنها ليست بجرار ولكنها جرب الزبيب ، فجاء حتى ألقى صدره على غصن ثم قال : ويلك يا شمردل أما عندك شيء تطعمنى ؟ قلت بلى والله إن عندى لجدياً تغدو عليه بقرة وتروح أخرى، قال : أعجل به ، فأتيته به كأنه عكة ـ وعاء السمن ـ وتشمر فأكل ولم يدع ابنه ولا عمر حتى أبقى فخذاً ، فقال : يا أبا حفص هلم ، قال : إنى صائم ، ثم قال : ويلك ياشمردل ، أماعندك شيء ؟ فقلت : بلى والله دجاجات ست كأنهن رئلات النعام ـ أولاد النعام ، واحدهارأل ـ فأتيته بهن فكان يأخذ رجل الدجاجة حتى يعرى عظمها ثم يلقيها بفيه ، حتى أتى عليهن ثم قال : ويلك أماعندك شيء ؟ فقلت : بلى والله إن عندى لحريرة ـ الحريرة ضرب من الطعام يتخذ من الدقيق يطبخ بلبن أودسم ـ كقراضة الذهب ، فقال أعجل بها ، فأتيته بعس ـ العس: القدح الكبير ـ يغيب فيه الرأس ، فجعل يتلقمها بيده ويشرب ؛ فلما فرغ تجشأ كأنه صاح فى جب ، ثم قال: ياغلام أفرغت من غدائنا؟ قال : نعم، قال: وماهو؟ قال: نيف وثمانون قدراً، قال: فأتنى بهاقدراً قدراً، فأتاه بها وبقناع عليه رقاق ـ القناع إناء من عسب النخل يوضع فيه الطعام ـ فأكثر ماأكل من قدر ثلاث لقم وأقل ماأكل لقمة ،

سَيَمُرُّ بِكَ بعد حين ؛ وكيف لا يَعْذُرُ المُعْتَرَّ[1] المحْرُوم إذا تَهَالَكَ على لَذِيذِ المَطْعوم ، وما أَظْرَفَ ذلك الأعرابيَّ الذى لا عَهْدَ له إلّا بالشِّيحِ والقَيْصوم[2] ، ولِسانُ حالِه يقول :

الأبيضَانِ أبْرَدَا عِظامِي المَاءُ والفَتُّ بِلا إدَامِ

وقد حَضَرَ طَعامَ أحدِ الأُمَراءِ وأكَلَ مَعَهُ فلمّا أُحْضِرَ الفَالُوذَجُ[3] قال له الأميرُ : إنْ أكلْتَ هذا حَزَزْتُ رَأْسَك : فأَطْرَقَ مَلِيًّا ، ثم مَدَّ يَدَهُ إليه وقال : أُوصِيكَ أيُّهَذَا الأميرُ بِصِبْيَتِي خَيْرًا . . . ومِثْلُهُ الأعْرَابيُّ الذى أكلَ يوما معاوية ، فأخَذَ شَيْئًا من بين يديه ، فقال له معاوية : لَقَدِ انْتَجَعْتَ ، فقال الأعرابى : مَنْ أجْدَبَ انْتَجَعَ[4] ! ثم أُحْضِرَ جَدْيٌ حَنِيذٌ[5] ، فأَخَذَ الأعْرَابيُّ يُمَزِّقُهُ ويُمْعِنُ فى

ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس ووضعت الخوانات فجعل يأكل مع الناس

(١) المعتر : الفقير أو المتعرض للمعروف من غير أن يسأل

(٢) الشيح : نبات مر طيب الرائحة معروف ، والقيصوم : نبات مر طيب الرائحة معروف لأهل البادية

(٣) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل

(٤) الانتجاع والنجعة فى الأصل : طلب الكلأ ومساقط الغيث ؛ وفى المثل : من أجدب انتجع

(٥) الحنيذ : المشوى

أكيله ، فقال معاوية : ياهذا أتطالب هذا البائس بذحل (١) هل نطحتك أمه ؟ قال : وأبيك إنك لشفيق عليه ! هل أرضعتك أمه ! وكان لزياد بن عبد الله الحارثى جد لا يمسه أحد فعشى فى شهر رمضان قوما منهم أشعب ، فعرض أشعب يوما للجدى من بين القوم ، فقال زياد حين رفعت المائدة : أما لأهل السجن إمام يصلى بهم ؟ قالوا : لا ، قال : فليصل بهم أشعب . فقال أشعب : أو غير ذلك أيها الأمير ؟ قال : وماهو ؟ قال : لا آكل لحم جدي أبدا ... وهل يعيب التطفيل وينتقص المتطفلين إلا كل أحمق مأفون .. إن التطفيل ثورة معوية حارة تلظى على المترفين .. ولكنها ثورة سلمية سائغة مقبولة متواضعة كل سلاحها وجه وقاح وشئ من إراقة ماء الوجه ... على أنه لا يدعو هذا السلاح « إراقة ماء وجه » إلا أنا وأنت ، أما رجال الفن ... أما من تدعوهم متطفلين ، فلا يعدو ذلك فى رأيهم أن يكون تقاضى حق ، من أناس قد أمعنوا فى ترفهم ، ولم

---

(١) الذحل : الثأر

يَرْضَخُوا لِلْمَحْرُومِينَ بِلُمَاظَةٍ مِنْ حُقُوقِهِمْ[١]:

يَبِيتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً بُطُونُهُمْ وَجَارَاتُهُمْ سُغْبٌ يَبِتْنَ خَمَائِصَا[٢]

وَلَحَا اللهُ أَبَا عَمْرَه[٣]، وَلَا أَبْعَدَ غَيْرَه: إِنَّهُ شَرُّ مَا يُمْنَى بِهِ الْمَرْءُ فِي دُنْيَاه، وَمَا أَفْظَعَ الإِنْسَانَ إِذَا نَقْنَقَتْ ضَفَادِعُ بَطْنِه، وَعَضَّ الصَّفَرُ عَلَى شَرَاسِيفِهِ بِنَابِهِ وَسِنِّه[٤].

أَطْعِمُوا الْجَائِعِينَ أَيُّهَا الناس، واتَّقُوا صَوْلَةَ الإِنْسَانِ إِذَا نَالَ مِنْه سُعَارُ الْجُوعِ، وإِلَّا ثَارَ ثَائِرُهُ عَاصِفاً بِكُمْ بَعْدَ طُولِ هُجُوعٍ...

---

(١) رضخ له من ماله رضخا: أعطاه قليلا من كثير؛ واللماظة: تستعار لبقية الشيء القليل، قال:

وما زالت الدنيا يخون نعيمها وتصبح بالأمر العظيم تمخض
لماظة أيام كأحلام نائم يذعذع من لذاتها المتبرض

«المتبرض المتبلغ»

(٢) المشتى: وقت القحط والمجاعة؛ وسغب: جياع، وخمائص: ضامرات البطون جوعا (٣) أبو عمره: كناية عن الجوع

(٤) نقنق الضفدع: صوّت صوتاً يفصل بينه مد وترجيع، ونقنقت ضفادع بطنه: كناية عن الجوع؛ والصفر - فيما تزعم العرب - حية فى البطن تعض الإنسان اذا جاع، واللذع الذى يجده عند الجوع من عضه، والشرسوف: طرف الضلع المشرف على البطن، ويقال: عض الصفر على شرسوفه: اذا جاع

أخطاء مطبعية

وقع فى هذا السِّفْر من الفردوس بعض أخطاء نرجو القارئ الكريم أن يصححها كالآتى :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	٥	ما ات	مازلت
١٠	١٠	حسم	جسم
١٥	٨	أرِنا	أرِنَّا
١٩	٧	البرق	البراق
٢٦	٨	حركة الأدب	حِرْفَة الأدب
٢٨	٦	فَخَيُّوا	فَخَيَّوْا
٣٣	١٢	عَمْرَكَ اللهُ ، فى بعض النسخ ،	عَمْرَكَ اللهَ
٣٨	٢	الْجَدَّ	الْجِدَّ
١١٥	٦	فليس أَحَقٌّ	فاليس أَحَقُّ

مطبوعات المؤلف

١ ـ شرح ديوان المتنبي فى أربعة أجزاء

٢ ـ شرح ديوان حسان بن ثابت

٣ ـ شرح التلخيص فى علوم البلاغة

٤ ـ حضارة العرب فى الأندلس

٥ ـ الفردوس أو سياحة فى الآخرة

وتطلب من المؤلف بمنزله رقم ١٨ شارع الفلكى بمصر ـ أمام ضريح سعد، ومن مكتبة ومصوراتى آمون بشارع الكومى بالسيدة زينب ـ أمام المدرسة السنية تليفون ٥٥٩٤٧ ، ومن المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على لصاحبها الحاج مصطفى محمد ، ومن مكتبة النهضة بشارع المدابغ أمام جريدة الأهرام ، وسائر المكاتب الشهيرة .